سلسلة علماء عباقرة

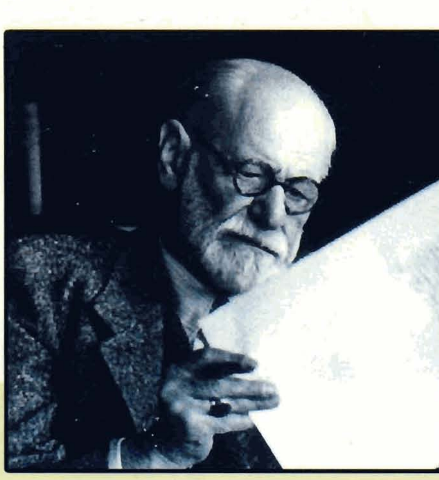
سيغموند فرويد

مكتشف اللاشعور



تأليف
مارغريت ماكنهوبت

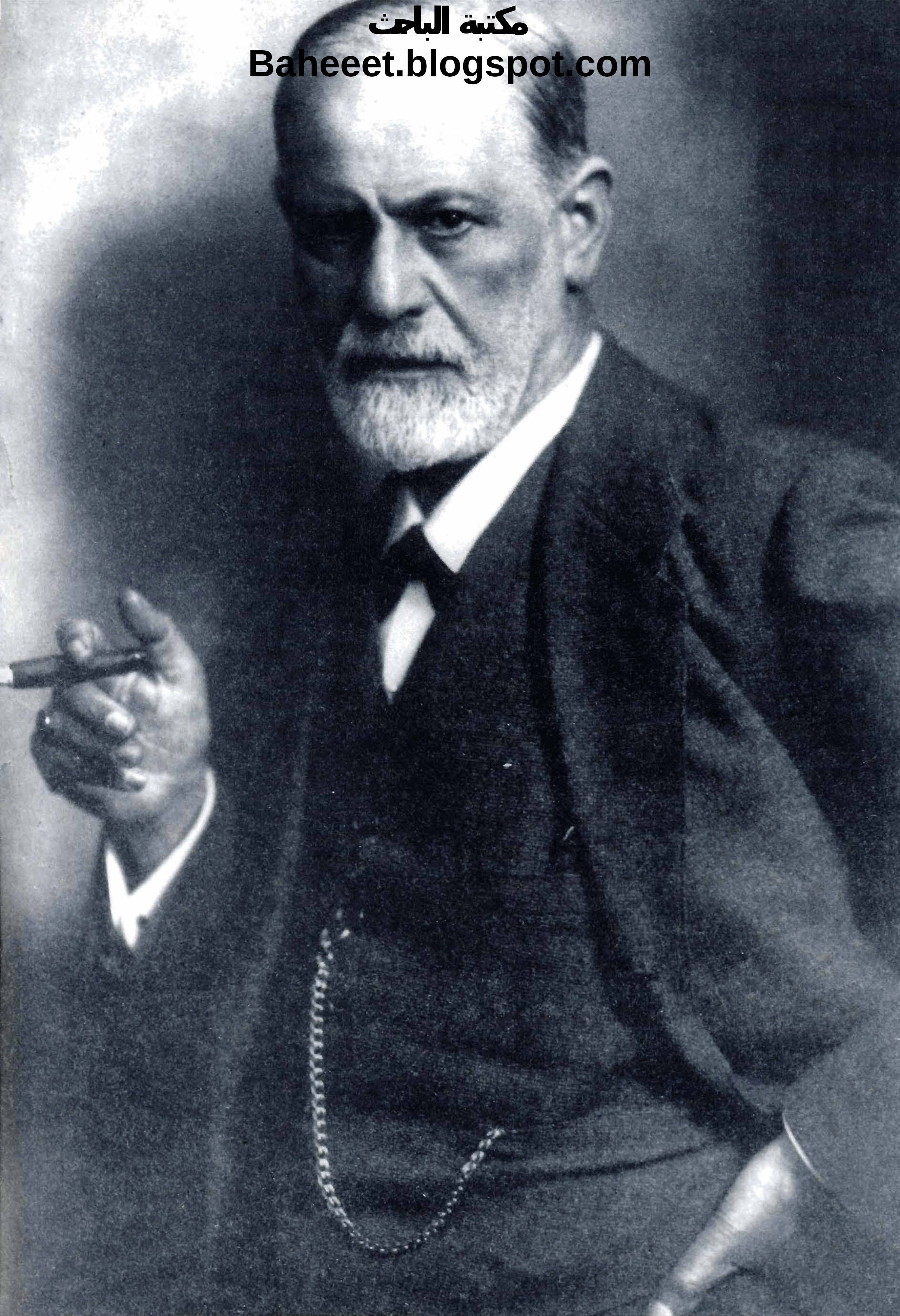
تعريب
د.سامر عرار



مكتبة العبيكان

سيغموند فرويد

مكتشف اللاشعور



سيغموند فرويد

مكتشف اللاشعور

تأليف
مارغريت ماكنهوبت

تعريب
د. سامر عرار

مكتبة العبيكان

Original Title:
Sigmund Freud
Explorer Of The Unconscious

ISBN 0-19-509933-8

الرياض 11595، المملكة العربية السعودية، شمال طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة، ص . ب . 62807
Obeikan Publishers, North King Fahd Road, P.O. Box 62807, Riyadh 11595, Saudi Arabia

الطبعة العربية الأولى 1425هـ ـ 2004م

ISBN 9960 - 40 - 418 - 8

ح

مكتبة العبيكان، 1424هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ماكنهوبت، مارغريت

سيغموند فرويد مكتشف اللاشعور . / مارغريت ماكنهوبت؛ سامر عرار . ـ الرياض، 1424هـ

224 ص؛ 14 × 21 سم

ردمك: 8 - 418 - 40 - 9960

1 ـ الاختراعات 2 ـ المخترعون

أ. عرار، سامر (مترجم) ب . العنوان

ديوي: 608,7 1424 / 4801

رقم الإيداع: 1424 / 4801

ردمك: 8 - 418 - 40 - 9960 ISBN

المحتوى

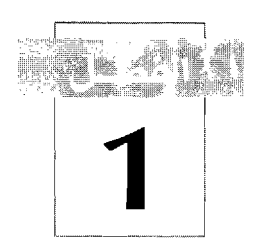
1. الأصول 9
2. التجارب 35
3. المحادثات 61
4. التفسيرات 79
5. المغادرات 95
6. الحلول 117
7. التفاعلات 131
8. الواقع 153
9. المعاناة 179
10. الإرهاق 199

عبر القرون كان لا بد لحب الذات الساذج عند الرجال من أن يتجلى من خلال عاصفتين رئيسيتين على يد العلم. الأولى عندما تعلموا أن الأرض ليست مركزاً للكون وإنما هي مجرد قطعة صغيرة من النظام الكوني الذي يصعب تخيل حجمه. وقعت العاصفة الثانية حينما دمرت البحوث في علم الأحياء المكانة التي يعتقد أنها متميزة للإنسان من بين الخليقة وأثبتت أنه منحدر من مملكة الحيوان كما أثبتت طبيعته الحيوانية التي لا يمكن إلغاؤها... إلا أن هوس العظمة عند الإنسان جعلته يعاني من عاصفة ثالثة هي الأكثر إيذاء له وهي البحوث النفسية في وقتنا الحاضر التي تسعى أن تبرهن للأنا أنها ليست سيدة نفسها، بل عليها أن تُطمئن نفسها بمعلومات ضئيلة عما يجري على المستوى اللاشعوري في عقلها... وهذا يزيد من الثورة العارمة ضد علمنا، والازدراء من كل اعتبارات المدنية العلمية وإطلاق العنان للمعارضة من كل قيود المنطق الحيادي.

ـ سيغموند فرويد،
حول المعارضة للتحليل النفسي
المحاضرات التمهيدية
عن التحليل النفسي (1933)



بعد أن هرب فرويد من ڤيينا ناشداً الأمان في لندن في عام 1938، استطاع أن يُنشيء نسخة مطابقة لمكتبه الذي كان عنده في منزله في ڤيينا والذي كان ممثلاً بالمصنوعات اليدوية القديمة.



1

الأصـول

إن المدخل الذي يؤدي إلى غرفة مكتب الدكتور هو عادي تماماً. إذ يعيش الدكتور ويعمل في حي ينتمي إلى الطبقة الاجتماعية المتوسطة في ڤيينا وفي شقة سكنية على شارع هادئ من شوارع هذه المدينة. تصعد الدرج المؤدي إلى مكان الإقامة الذي يحمل اسم «البروفسور الدكتور فرويد» ثم افتح الباب وادخل إلى غرفة الانتظار سيخرج الدكتور حالاً من أجل موعدك. قامته معتدلة تساوي تقريباً سبعة أقدام منحنية قليلاً ويرتدي لباساً لائقاً ومرتباً جداً يشبهه لباس أستاذ جامعي أنيق.

وعلى الرغم من أن عيناه بنيتان غامقتان فإنهما تلمعان وتضيئان لدرجة تبدوان كأنهما قادرتان على اختراقك.

وبنغمة فيها روح السلطة يدعوك إلى الدخول عبر غرف مكتبه.

عندما تسير إلى غرفة الاستشارة تلحظ في هذه الغرفة الصغيرة الداكنة أن الدكتور قد أنشأ متحفاً مصغراً. وأنت تسير بخطى واسعة على سجادة داكنة منقوشة على الطراز الشرقي تُحدق بالكنوز التي تحيط من حولك.

إلى اليسار منك سترى رفوفاً ورفوفاً من التماثيل الصغيرة: آلهة المصريين ملونة بألوان باهتة، وفخار جاف وجمل ذو سنمين، ورؤوس إغريقية بعيون لا ترى وشعر متجعد، وتماثيل لبوذا وهو جالس بسكينة متصالب الساقين. وثعابين ملتفة وكؤوس القرابين. تنتابك الرغبة في التقاط واحدة من هذه الأشياء لكنك تشعر نوعاً ما أن كل شيء موجود في مكانه المناسب تماماً وأن البروفسور سوف يلاحظ فيما إذا تحرك أي شيء من مكانه.

حيثما نظرت، رأيت الجدران مزدحمة بقطع من اللوحات القديمة والموزاييك والحجارة. وأمامك سرير ذو نهاية مرتفعة على نحو يمكن فيه للمرضى أن يضجعوا بارتياح. ويغطي السرير سجادة خلابة وعدد من الوسائد.

يجلس الدكتور على كرسي خلف الطرف الرأسي للسرير ويشير إليك لكي تستلقي عليه. لا يمكنك رؤية الدكتور وأنت مستلقٍ على السرير لكنك تستطيع فقط أن تُعجب بتحفه. وبينما أنت مستلق على ظهرك على الوسائد تدرك بشكل ضعيف أرومة السيجار ودخان الفحم المتصاعد من الموقد. لقد تخيلت من قبل أن غرفة الاستشارة هذه سوف تكون غرفة مجهزة وظيفياً كغرف

مكاتب الدكاترة الآخرين ـ مكان مغطى بالشراشف البيضاء وتصدر عنه رائحة الصابون المضاد للعدوى الواخزة.

ما نوع الدكتور الذي يعالجك في متحف من الصمديات؟

عندما يفكر معظم الناس بالمعالجين النفسيين، فإن ما يخطر ببالهم هو صورة فرويد وهو جالس بهدوء يراقب ويدخن سيجاراً في الوقت الذي يكون المريض فيه مستلقياً على سرير ويتحدث عن أمه. قليل هم العلماء الذين كانوا مؤثرين أو تعرضوا للشجب على نطاق واسع كما كان حال فرويد.

لقد خضعت نظريات فرويد، في الحب واللغة والنفوذ البشري والموت، للدراسة في أنحاء العالم وتم تطبيقها في مجالات علمية تراوحت من علم النفس إلى علم الأقوام إلى نظرية الأدب.

ومع ذلك، كلما خضعت أعمال فرويد للدراسة ثارت مناظرات حامية حولها.

لقد تم انتقاد التحليل النفسي، وهو العلاج الذي طوره فرويد لمعالجة المرضى العقلي، لكونه خطيراً خطراً يفوق التحمل ولكونه غير مجدٍ تماماً. لقد أرعبت كتاباته عن الجنسية الطفولية وغريزة الموت كثيراً من النقاد.

لقد كان فرويد مذنباً في نظر النقاد بسبب تقديم إدعاءات غامضة لا يمكن إثباتها علمياً وبسبب التأكيد

على أن دافع الجنس هو فوق جميع الدوافع البشرية الأخرى وبسبب استخدام خبرته الشخصية على أنها النموذج القدوة بالنسبة للنمو النفسي عند البشر.

بعض هذه الاتهامات صحيحة. وبعضها الآخر يمثل سوء فهم لكل من النظرية والإنسان إلا أن فرويد لم يحلم ببساطة بالتحليل النفسي بعد قراءة عدد هائل من الكتابات الرخيصة.

لقد كان عالماً مدرباً تدريباً محترفاً والذي اعتمدت دراسته عن المرض العقلي على أساس نظريات علم الأحياء التي كانت مقبولة على نطاق واسع في القرن التاسع عشر. وأهم من ذلك، ليس هناك عقيدة فرويدية ثابتة. فلقد تطورت أفكار فرويد عبر سنين حياته وظل ينقح في نظرياته حتى مماته. كما قام أتباعه بمراجعة وتوسيع أعماله ولا يزالون يفعلون ذلك حتى هذا اليوم.

لم يكن في نية فرويد أن تنتقل طرائقه إلى العالم. وعلى الرغم من أنه كثيراً ما كان يستخدم أمثلة من حياته الخاصة في أعماله، إلا أنه كان رجلاً يقدس الخصوصية. لقد أحرق دفاتره ومذكراته ومسوداته القديمة في عام 1885 وكرر ذلك في عام 1907. وأثناء الجولة الأولى من عملية الإتلاف كتب إلى خطيبته:

«أما بالنسبة لِكُتَّاب التراجم، دعيهم يقلقوا، فليس عندنا رغبة في أن نسهل عليهم مهمتهم. سيكون كل واحد منهم محقاً في رأيه عن (نشوء البطل)» وبالرغم من

هذه الجهود فقد نجى عدد من الرسائل ومسودات فرويد يكفي ليبين أنه لم يكن بطلاً فقد كان باحثاً لامعاً وثائراً علمياً. لم يكن فرويد شخصاً حقيراً ولا مقدساً ولكنه كان رجلاً شجاعاً مثيراً للإعجاب.

وُلد سيغيسموند فرويد Sigismund Scholomo Frued لأميليا Amalia ويعقوب (جيكوب) فرويد Jacob Freud في السادس من شهر أيار عام 1856 عاشت عائلة فرويد في بلدة فريبيرغ Freiberg في مورافيا Moravia وهي جزء من الامبراطورية النمساوية الهنغارية التي تقع اليوم داخل جمهورية التشيكك. فريبيرغ المعروفة اليوم باسم بريبور Pribor كانت بلدة صغيرة تتألف من 5,000 نسمة. عندما ولد سيغموند، كانت أسرته تعيش في غرفة واحدة مستأجرة في الطابق الثاني من بيت متواضع فوق دكان حداد. ذلك في الوقت الذي كان فيه معظم اليهود في مورافيا فقراء يعيشون في أحياء ضيقة. نشأ جيكوب فرويد في غاليسيا Galicia. وهي مقاطعة في الامبراطورية النمساوية الهنغارية التي تم تقسيمها الآن بين بولندا. وجمهورية التشيك. وغادر موطنه وهو في عمر 29 عاماً وسافر إلى فريبيرغ حيث انضم هناك إلى جده الذي كان يعمل تاجراً للأقمشة. وفي عام 1859 عندما كان عمر سيغيسموند ثلاثة أعوام انتقلت الأسرة إلى لايبزغ Leipzig في ألمانيا لمدة عام وبعده إلى ڤيينا عاصمة الامبراطورية النمساوية الهنغارية. وقبيل ذلك جاء لعائلة فرويد طفل ثان هي شقيقة فرويد أنّا Anna وفي السنوات الست التي

تبعت ذلك تضخمت عائلة فرويد مع قدوم أربعة بنات أخريات هن أدولفين Adolfine وماري Marie، وبولين Pauline، وروسا Rosa وابن ثانٍ هو ألكساندر Alexander.

أمضى سيغيسموند سنواته الثلاث الأولى محاطاً بالسهول الذهبية والغابات الخضراء، مع جبال كارباتيان التي تلوح في الأفق البعيد. لم ينس أبداً بلدته المحبوبة فريبيرغ، وعندما أصبح عمره 75 عاماً كتب «ففي أعماق نفسي لا يزال يعيش الطفل السعيد من فريبيرغ الوليد الأول لأم شابة، الذي استقبل أول الانطباعات التي لا يمكن محوها من ذلك الهواء وتلك الأرض». بينما تركت ڤيينا، في المقابل، انطباعاً مريضاً عنده، كتب إلى صديقه ويلهالم فلييس Wilhelm Fliess في عام 1955 مصرحاً عن مشاعره «أنا متعطش مثل تعطش الفتى إلى الربيع والشمس والأزهار وإلى امتداد المياه الزرقاء. أكره ڤيينا كراهية شخصية أكيدة وعلى العكس تماماً من عملاق أنتايوس Antaeus أستمد القوة الجديدة كلما أبعدت قدماي عن أرض هذه المدينة التي هي مدينتي». في ڤيينا واجه فرويد اللاسامية، التي تمثل عداءً شديداً لليهود وعانى من توبيخات وإخفاقات مهنية متكررة. ومع ذلك فقد عاش هناك من عمر 5 سنوات وحتى عمر 82 سنة.

لقد كانت ڤيينا موطن فرويد. وارتحل عنها فقط بسبب الغزو النازي للنمسا في عام 1938.

عندما ولد سيغيسموند، كان عمر جيكوب (يعقوب) 40 عاماً وكان عمر أميليا 21 عاماً. كانت أميليا امرأة جميلة جداً وفخورة بمظهرها. وعندما أصبح عمرها 90 عاماً، رفضت أن تشتري قبعة عرضتها عليها إحدى بناتها وصاحت قائلة «لا أريد أخذ هذه القبعة، لأنها تجعلني أبدو عجوزاً! أما أحفادها فقد وصفوها على اختلافهم بأنها الإعصار أو التسلط فهي المرأة الانفعالية التي لا تكظم غيظها. وفي رسالة إلى خطيبته ادعى سيغيسموند أن أمه قد أعطته «سمة الانفعالية» أي طبعه الحاد وانفعالاته الجياشة.

وفي المقابل كان جيكوب (يعقوب) هادئاً وغير فعّال. كان رجلاً طويل القامة ذو كتفين عريضتين ويقرأ الكتاب المقدس في المنزل.

اعتقد سيغيسموند فيما بعد أنه نسخة عن أبيه من الناحية الجسدية والنفسية. فقد كان جيكوب (يعقوب) فرويد متفائلاً على الدوام لكنه لم يكن في يوم من الأيام ناجحاً جداً في التجارة وفي السنين المتأخرة من حياته أصبح غير قادر على إعالة أسرته.

عندما كان عمر سيغيسموند 28 عاماً كتب يناشد أبناء يعقوب من زواجه الأول وهم فيليب Philipp، وعمانويل Emanuel طالباً منهما أن يخرجا أبيهما من عسرته المالية.

لقد نشأ يعقوب كيهودي أرثوذكسي فقرأ وتكلم اللغة

العبرية بطلاقة. ومع ذلك فقد تجاهل معظم المناسبات الدينية وعامل الأعياد كعيد البوريم Purim وعيد الفصح Passover على أنها احتفالات عائلية بدلاً من كونها أعياد دينية. حتى أنه استأجر قابلة غير يهودية عند ولادة ابنه البكر.

ادعى سيغيسموند فيما بعد أن أباه «قد سمح لي أن أنمو بعيداً تماماً عن كل ما يتعلق باليهودية» لم تكن هذه العبارة صحيحة تماماً لأنه وفقاً لما جاء في سيرته الذاتية، بدأ سيغيسموند بقراءة العهد القديم عندما كان قد «اكتسب بالكاد مهارة القراءة» إلا أنه لم يتعلم أبداً قراءة العبرية.

لقد خاب أمل سيغيسموند في أبيه الذي كان يرى فيه شخصاً ضعيفاً وكانت من أنشط ذكرياته في الطفولة قصة أبيه عن الحادثة التي جرت له عندما كان شاباً وبينما كان يعقوب يسير في نزهة وإذا بشخص مسيحي يقتلع من رأسه قبعته الجديدة ويصيح في وجهه «أيها اليهودي، انزل عن رصيف المشاة!» وحينما سأل سيغيسموند أباه وماذا فعلت؟ أجاب يعقوب «نزلت إلى الطريق والتقطت قبعتي».

لم يكن سيغيسموند سعيداً باستجابة أبيه فقد درس في المدرسة الأعمال الكبيرة للأبطال وكان معجباً بشكل مطلق بموسى، نبي اليهود الذي أنقذ شعبه من العبودية في مصر وحمل إليهم الوصايا العشر عند جبل سيناء.

أطلق سيغيسموند على جنوده من الدمى اسم



جنرالات نابليون. كذلك فإنه عظَّم هانيبعل Hannibal الجنرال الشمال أفريقي الذي قَدِمَ بجيشه إلى جبال الألب وإلى بوابات روما. وبالنسبة إلى سيغيسموند يمثل هانيبعل رمزاً للتحدي الخارجي للسلطة القائمة في روما (تماماً مثلما كان على اليهود أن يتحدوا أمام الروم الكاثوليك. الذين يشكلون غالبية السكان النمساويين). وفي مرحلة متأخرة من حياته واجه فرويد بجسده أعداء السامية صائحاً بغضب، متهماً ومشيراً بعصاه وهو يسير إلى أولئك الذين يصرخون في وجهه ويوبخونه.

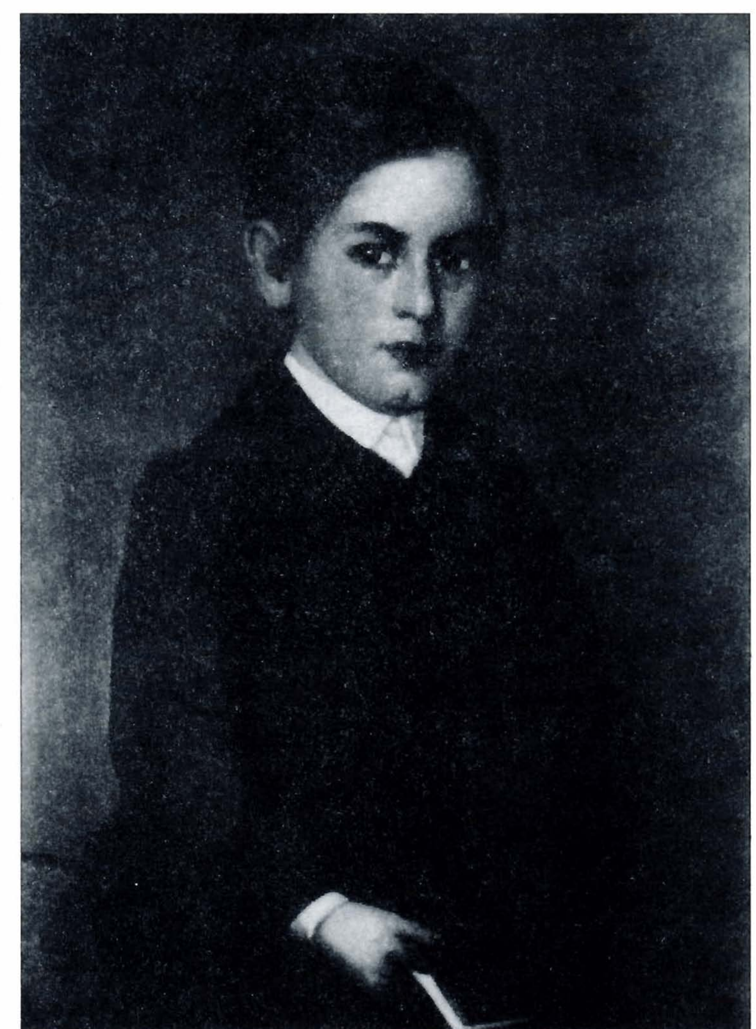
والدة فرويد، أميليا بقيت ذات تأثير قوي على فرويد حتى وفاتها وهي في عمر 95 عاماً.

ليس من الواضح كيف جمع يعقوب فرويد ماله حينما ذهب إلى ڤيينا، إذ لم يظهر اسمه في كتب دليل التجارة أو قوائم رجال الأعمال الذين يدفعون الضرائب في زمانه. من الممكن أن يكون قد اقترض يعقوب المال من أقرباء زوجته ومن ولديه الكبيرين من زواجه الأول فيليب وعمانويل لكي يستطيع العيش. إذ كان بمقدوره إعالة أميليا وأولاده السبعة بشكل مريح وتقديم الكتب وتذاكر المسرح لهم والحصول على لوحات فيها رسومات مشخصة لأطفاله ودفع رسم التسجيل كاملاً لمدرسة سيغيسموند. عانت أميليا من مرض السل وكانت تقوم بزيارات متكررة إلى مصحات ومناطق اصطياف في جبال

كارباثيان لتستعيد صحتها. وفي عام 1865 تمت إدانة يوسف Josef شقيق يعقوب بجرم تزوير العملة، ومن الجائز أن يكون كل من يعقوب وفيليب وعمانويل متورطين في عمليات يوسف غير المشروعة، التي ساعدت بكل تأكيد في دعم عائلة فرويد في أمورها المالية.

كان سيغيسموند مدللاً وظلت أمه تدعوه «سيغي الذهبي» حتى توفيت وعمرها 95 عاماً وكثيراً ما أخبره أقاربه الكبار في السن أنه عندما ولد قالت امرأة مزارعة لأمه أميليا أنها قد «أنجبت للعالم رجلاً عظيماً» وفي مناسبة أخرى حينما كان سيغيسموند في عمر 12 عاماً أخبره شاعر جوال أنه سوف يصبح وزيراً. وعندما باشر سيغيسموند الحضور في الجامعة في عام 1875 تم منحه غرفة خاصة به في المنزل بينما تم حصر أعضاء الأسرة الثمانية في غرف النوم الثلاث المتبقية.. أرادت عائلة فرويد أن تقدم تضحيات للابن البكر اللامع.

لقد تركت خلفية فرويد اليهودية ملامح عميقة على كل من تطوره المعرفي وعلى حياته في المجتمع عندما استولت النمسا على غاليسيا Galicia في عام 1772 زاد عدد اليهود في النمسا من 70,000 نسمة إلى 300,000 نسمة تقريباً، كانت استجابة الزعماء النمساويين لهذا الوضع بأن شرعوا قوانين يمكنها أن تخفض من عدد السكان اليهود. فكان على اليهود أن يدفعوا ضرائب مرتفعة، أو أن يتعرضوا لحظر الطرد من مواطنهم. لقد



بما أن الطفل الأكبر من بين الأطفال السبعة هو سيغيسموند كان مدللاً من قبل أبويه وعندما باشر الحضور في جامعة ڤيينا في عام 1873، أعطي غرفة خاصة به من منزل العائلة المزدحم بينما فُرض على بقية إخوانه المشاركة فيما بينهم.

منعت ضريبة الزواج المرتفعة كثيراً من اليهود من الإقدام على الزواج، إلا في السر، وكان على أطفال اليهود أن يذهبوا إلى المدارس الألمانية.

وحتى عام 1848 حافظت النمسا على قوانين صارمة تتصل باليهود حيثما وجدوا.

وفي موراڤيا كان باستطاعة اليهود أن يعيشوا فقط في 52 تجمع يهودي محدد وكان يسمح لهم أن يقيموا فقط في بلدات ومدن كبيرة إذا تم اعتبارهم من فئة «اليهود الذين يستحقون التسامح» من قبل السلطات المحلية التي فرضت عليهم ضريبة «التسامح».

في عام 1848 اجتاحت أوروبا الثورات، إذ طالب المواطنون في فرنسا وألمانيا وكرواتيا وهنغاريا وأجزاء من إيطاليا أن تصبح حكوماتهم الأوتوقراطية جمهوريات حديثة ذات صحافة حرة وانتخابات ديمقراطية. تعرضت جميع هذه الحركات إلى البطش من قبل الملوك والأباطرة. ومع ذلك حصل التحرريون Librals في النمسا على نفوذ محدود تحت سيطرة حكومية مركزية محكومة من قبل الامبراطور فرانز جوزف وتم تأسيس برلمان سمي باسم ريتشسرات Reichsrat في ڤيينا أما المجلس الامبراطوري (الذي هو عبارة عن مجموعة من مستشاري الامبراطور فرانز جوزف Franz Josef فقد امتلأ بساسة ينتمون إلى الطبقة الاجتماعية المتوسطة بدلاً من الأرستقراطيين مُلاك الأراضي وقامت اللجان مسرعة بتأليف وتنقيح وطرح ثمانية دساتير مختلفة خلال 20 عاماً. حاول النمساويون أن يقيموا مجتمعاً جديداً يقوم على سلطة القانون والانتخابات الديمقراطية والعلمانية أو اللادينية للحلول محل الدولة القديمة التي حكمها الملكيون والكنيسة الكاثوليكية لقد كان نجاحهم ممزوجاً.

لم يحصل التحرريون النمساويون أبداً على دعم كبير

خارج نطاق مسيحيي الطبقة المتوسطة واليهود في المدن الكبيرة، وبقوا في السلطة عن طريق حصر حق التصويت للرجال الذين يملكون المال والذين يمكن أن يقدموا الدعم لهم. في عام 1873 كان باستطاعة 6 بالمئة فقط من البالغين الذكور النمساويين أن يدلوا بأصواتهم. على أية حال كانت الإصلاحات القانونية التي أحدثها التحرريون مهمة جداً بالنسبة إلى فرويد وأسرته.

وقبيل عام 1867 عندما كان عمر سيغيسموند 11 عاماً، لم يقض فقط التحرريون النمساويون على القوانين المناهضة لليهود بل حتى انضم يهود كثر إلى الحكومة. وكما استذكر سيغيسموند فيما بعد لقد كان الزمن الذي في حينه حمل كل صبي يهودي مجتهد حقيبة وزير في حقيبته المدرسية. كان يعلم تمام العلم أن سبب حظه السعيد هو إصلاحات التحرريون وقد أيدها بقوة.

ومع ارتفاع أسهم الحظ عند اليهود وازدياد عدد السكان اليهود في ڤيينا اندفعت الأسر أفواجاً نحو العاصمة. وفي عام 1857 كان هناك 6,000 يهودي في ڤيينا وقبيل عام 1867 أصبحوا 40,000 يناهزون نسبة 6 بالمئة من عدد السكان. كان بعض اليهود المنحدرين من أسر ڤيينا «الممنوحين صفة التسامح» يتحدثون الألمانية ويتوافقون جيداً مع الجو الثقافي في ڤيينا. وآخرون مثل أسرة فرويد قدموا من بلدات صغيرة في المناطق النائية. وعلى غير حال كثير من اليهود الفقراء كانت أسرة فرويد

تتحدث الألمانية الفصحى في البيت وليست الياديش Yiddish وهي اللغة الألمانية العامية التي كان معظم اليهود الشرقيون يتحدثون بها. حاولت أسرة فرويد كما هو الحال بالنسبة لكثير من الأسر اليهودية أن تحاكي الطبقة المتوسطة المسيحية. ومع صحوة الإصلاحات التحررية في النمسا دخل الطلاب اليهود عالم المهن بأسرع صورة ممكنة. وقبيل العقد الذي يبدأ بعام 1880 ارتفع عدد سكان اليهود إلى 72,000 نسمة وبلغ 15 بالمئة من العدد الكلي للسكان وكان أكثر من نصف عدد المحامين والأطباء والصحفيين في المدينة من اليهود. كما كان اليهود مغالين أيضاً في حقول الفنون والمصارف والتربية والتعليم.

هذا لا يعني أن معاداة السامية قد اختفت من ڤيينا. إذ كان على سيغيسموند أن يتحمل التقريعات المضادة لليهود من زملائه في صالة الرياضة، وفي مدرسته الثانوية كما لم ينجُ عمله المهني فيما بعد من براثن التمييز. وعلى الرغم من ذلك كان يهود ڤيينا أثناء طفولته وشبابه متفائلين واستطاع أن يمارس عمله من غير خوف شديد من التمييز. نشأ سيغيسموند محاطاً بالتاريخ التوراتي. وفي الفترة المتأخرة من حياته ملأ كتاباته بمراجع العهد القديم وكثيراً ما كان يكتب عن المعاني والمضامين النفسية للتوراة. ومع ذلك أصبح ملحداً متشدداً (وهو الشخص الذي لا يؤمن بأي إله) في مرحلة مبكرة وبقي كذلك طوال حياته. كانت مشاعره حول هذه المسألة قوية جداً

إلى درجة أنه قاطع وهو في سن الرشد جميع المناسبات الدينية اليهودية في بيته إلى درجة أفزعت زوجته. (إلا أنه كتب في سيرته الذاتية «لقد كان والداي يهوديين وبقيت أنا نفسي يهودياً») لقد خشي أن يصبح التحليل النفسي أكثر شعبية أن ينظر إليه على أنه علم يهم اليهود فقط.

فعمل بكل ما أوتي من قوة على أن يشجع غير اليهود على نشر التحليل النفسي في أوساط المجتمع. لم تسفر هذه الجهود على إثارة إعجاب النازيين حينما غزا جيش أدولف هيتلر Adolf Hitler النمسا في عام 1938. وقع جميع اليهود سواء أكانوا متدينين أم غير متدينين في خطر إرسالهم إلى معسكرات الاعتقال والقتل، فاضطر فرويد إلى مغادرة ڤيينا.

وبما أن فرويد كان الطفل من الزواج الثالث لأبيه فقد أساء فهم تركيبة أسرته إذ تزوج يعقوب فرويد أميليا ناذانسون Amalia Nathansohn في عام 1855 عندما كان عمره 40 عاماً وكان عمرها 20 عاماً. لقد كان ابني يعقوب من زواجه الأول عمانويل وفيليب أقرب كثيراً في السن إلى أميليا من أبيهما. وكان عمانويل يكبر أميليا في السن بينما كان فيليب يصغرها بسنة واحدة. وكان من أوائل رفاق سيغيسموند في اللعب ابن عمانويل واسمه جان John أي أن سيغيسموند هو في الحقيقة عم جان لكنه يصغر ابن أخيه بسنة. اعتقد سيغيسموند بشكل طبيعي أن أخيه من والده فيليب، العازب، يصلح لأن

يكون زوجاً لأمليا أكثر بكثير من أبيه يعقوب لكن يعقوب كان هو الزوج لأمليا.

عند ولادة شقيقة فرويد الصغرى أنًا Anna خشي سيغيسموند أن يكون فيليب قد حل محل أبيه وأنجب من أمه طفلاً. وفي ذات الوقت كان سيغيسموند يعاني من مشاعر مختلطة تجاه أمه الجميلة الشابة، إذ كان هو أيضاً في رعاية مربية تشيكية عجوز وبدت له هذه المربية العجوز أكثر ملاءمة ليعقوب من أمليا. وكانت تأخذ هذه المربية الكاثوليكية المتحمسة سيغيسموند خلسة إلى الكنيسة. ذكرت أمليا فيما بعد لابنها «عندما كنت تعود إلى المنزل كنت تمارس علينا التبشير وتخبرنا بما يفعل

أسرة فرويد في عام 1876 يقف سيغيسموند (في الصف الأخير والثالث من اليسار) إلى جانب أخيه من والده عمانويل أحد أبناء أبيه من زيجاته السابقة.



الله سبحانه». اعتقد كثير من الباحثين أن هذه المربية كانت مصدر إعجاب فرويد بروما مركز إقامة البابا الكاثوليكية وكانت كمربية تُعنى بغسل فرويد وتدريبه على استخدام المرحاض.

كان يستمتع باهتمام مربيته به ويتذكر بفعالية حينما بدأ يسبر أغوار ذكريات طفولته المنسية في سنوات العقد الذي يبدأ بعام 1890.

مثل فرويد مثل جميع الأطفال، كانت لديه مشاعر مختلطة تجاه إخوانه وأخواته عندما ولد شقيقه يوليوس Julius كان عمر فرويد 17 شهراً وكان غيوراً جداً. توفي يوليوس بعد سبعة أشهر ثم جاءت شقيقته أنّا بعد عدة شهور مغتصبة مكانته كطفل وحيد إذ لم يشعر أبداً بمحبة كبيرة تجاهها في حياته اللاحقة. عندما كان عمر سيغيسموند سنتين ونصف السنة، اتهم أخوه من أبيه فيليب مربية فرويد بالسرقة وتم القبض عليها وإدانتها ووضعها في السجن. انزعج سيغيسموند كثيراً مثل أي طفل صغير آخر، وعندما كان فرويد فيما بعد يُنَظِّر عن علاقات أسرته تذكر هذه المشاحنات بوضوح كبير.

كانت ڤيينا في طفولة فرويد مدينة متسارعة في النمو ونابضة بالحياة. تضاعف في ڤيينا عدد المراكز والأعمال التجارية والسكان بين عامي 1840 و1870. وفي عام 1857 أعلن الامبراطور فرانز جوزف أن الدائرة الكبيرة من الأرض المفتوحة التي تحيط بالمدينة والتي كانت من قبل

موقعاً للحصون العملاقة، ينبغي أن تُشيّد للاستخدامات المدنية.

أصبحت هذه الأرض شارع ڤيينا الكبير رسمي باسم رينغ ستراس Ring Strasse والمعنى الحرفي له «الشارع الدائروي» وعندما تم تخصيص شارع رينغ ستراس في عام 1865 امتلأ على الفور بالمنازل ذات الشقق الفسيحة والمباني العامة الضخمة.

وخلال العقدين الذين تلا ذلك. شيدت ڤيينا بسرعة بيت الأوبرا والمتاحف وبناء البرلمان وقاعة المدينة بالإضافة إلى المقاهي المتنوعة والخلابة.

في نهاية القرن التاسع عشر ازدهرت ڤيينا وأصبحت مركزاً للطب. وقبيل انتهاء القرن ظهر نجوم كبار من أمثال الفنان غوستاڤ كليمت Gustav Klimt والموسيقاريون غوستاڤ ماهلر Gustav Mahler وآرنولد سكو إنبيرغ Arnold Schoenberg والكاتبان آرثر شنيتزلر Arthur Shnitzler وهوغو ڤان هوفمانزثال Hugo Van Hofmannsthal والعشرات من المفكرين الآخرين الذين أثروا الثقافة في ڤيينا.

لم يستفد فرويد كثيراً من هذه المباهج المدنية. لم يأبه بالرواد الطليعيون من الكتّاب والفنانين والموسيقاريين المعاصرين ولم يستمتع أبداً بقضاء أوقاته في المقاهي. إلا أن متعته الكبرى في ڤيينا بالإضافة إلى مسيرته اليومية كانت متاحفها.

بدأ فرويد تحصيله الدراسي في ڤيينا وفي البداية تعلم على يد والده في البيت. وبعد ذلك ذهب إلى مدرسة ابتدائية خاصة وبعدها دخل وهو في عمر 9 سنوات إلى المدرسة الألمانية gymnasium وهي مدرسة تضم المرحلتين الثانوية والإعدادية. لقد كان الأول في صفه لمدة ستة أعوام من أصل ثمانية أعوام حضرها في المدرسة الألمانية. وكان فرويد نهماً على قراءة الأدب الكلاسيكي القديم عند الرومان والإغريق. وتعلم اللغات اللاتينية واليونانية بالإضافة إلى الفرنسية والإنكليزية (وعلّم نفسه اللغة الإسبانية واللغة الطليانية إلى جانب ذلك)، قرأ فرويد أيضاً مسرحيات شكسبير Shakespeare في اللغة الإنكليزية. وكقارئ ممتاز حتى في شبابه، أخذ على عاتقه مراقبة الكتب التي تقرؤها شقيقته. أخبر أنّا وكان في حينه 15 عاماً، أنها لا تستطيع قراءة أعمال الكاتب الفرنسي أونر دي بالزاك Honoré de Balzac الذي ألّف سلسلة من الروايات تحت عنوان الملهاة الإنسانية Human Comedy لأنها كانت عنصرية جداً. وكان طبيعياً مع اقترابه من سن العشرين أن يتابع تعليمه في جامعة ڤيينا.

في البداية فكر فرويد أن يصبح محامياً وصرح في سيرته الذاتية «بتأثير قوي من صداقته مع زميل له يكبره بقليل في المدرسة الألمانية والذي أصبح فيما بعد سياسياً مشهوراً، أردت أنا أيضاً أن أدرس القانون وأصبح فعالاً اجتماعياً». لقد غيّر رأيه عندما بدأ دراسته الجامعية، ومع ذلك، ادعى فيما بعد أنه اتخذ قراراً بأن يصبح عالماً

عندما استمع إلى محاضر وعالم حيوان مشهور يدعى كارل بروهل Carl Brühl، يقرأ شعراً مؤثراً عن الطبيعة بعنوان الأم الحنون. ولكي يحقق رغبته في دراسة الطبيعة توجب عليه أن يدرس علم الأحياء كجانب أساسي من جوانب دراسته.

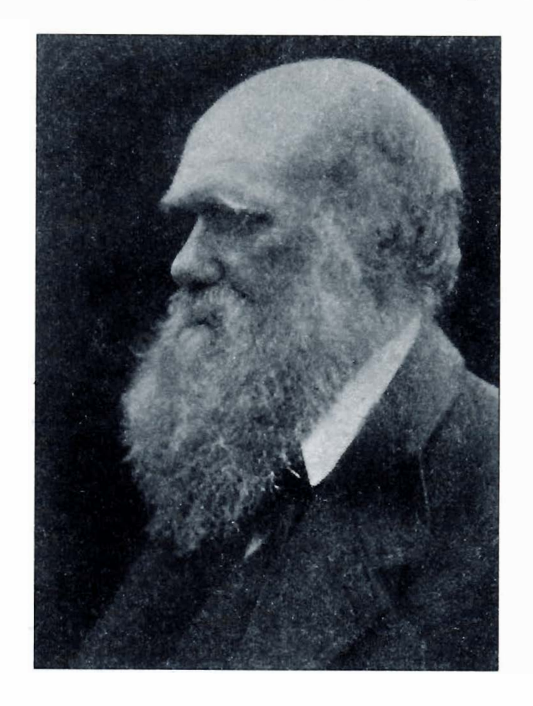
في خريف عام 1873 تقدم فرويد بأوراق تسجيله في جامعة ڤيينا كطالب طب في المرحلة الأولى وهنا غيَّر اسمه من سيغيسموند إلى سيغموند. وبذلك يكون قد التزم بدراسة 10 فصول دراسية على الأقل على مدى (5 سنوات) من الدراسات الطبية. كتب فيما بعد «لم أشعر بولع محدد تجاه مكانة وعمل الطبيب في تلك السنوات الأولى ولا في السنوات التي أعقبتها. بل شعرت أنني مدفوع بدافع التعطش نحو المعرفة». وكشاب طموح كان فرويد مولعاً بالشهرة، كان يتحول في أنحاء الحرم الجامعي باحثاً عن تماثيل لأساتذة عظام متنبئاً أنه سيأتي ذلك اليوم الذي سيقف فيه هو أيضاً محدقاً بالطلاب من فوق، وناشداً الخلود. لقد تخيل أن تمثاله النصفي سيظهر عليه اقتباس عن أوديب الشخص الإغريقي الأسطوري الذي كسب مملكةً بواسطة حله للغز أبو الهول أو الحيوان الخرافي: «لقد اكتشف اللغز الشهير وكان أعظم رجل» (مقتبسة عن مسرحية الروائي الإغريقي القديم سوفوكليس Sophocles).

كان فرويد معجباً بنظرية تشارلز داروِن Charles

Darwin المثيرة للجدل عن الاصطفاء الطبيعي، التي قدمها فرويد إلى العالم في عام 1859. وفي كتاب أصل الإنسان The Decent of man الذي نشر في عام 1871، بيّن دارون أن الإنسان، مثله مثل العضويات الأخرى، خاضع لعملية التطور، وقد انحدر من حيوان من ذوات الأربع أرجل الذي له ذيل وشعر. اعتقد كثير من الناس (ولا يزال يعتقد الكثير) أن هذه الفكرة هي إهانة للإنسان ومعصية لله. ومع ذلك رأى فرويد وزملاؤه العلماء نظرية دارون رؤية مختلفة.

إن النظرية التي تقول أن «الله هو الذي خلق هذه السمكة» لا يمكن اختبارها. لكن النظرية التي تقول أنه «تم اصطفاء هذه السمكة لأنها تقدر على البقاء حية على نحو أفضل من أسلافها» عندئذ يتوافر للعلماء عدد كبير من الألغاز (الأسئلة) التي تتطلب حلاً (أجوبة): ما هي الأسماك الأخرى التي لها علاقة مع هذه السمكة؟ وكيف تختلف عن بعضها البعض؟ وما هي الأعضاء المتماثلة؟ ومتى حصل التغير؟ وهل خضعت أنواع أخرى من الحيوانات من مثل الضفادع أو الدولفينات لنفس التغيرات؟ ولماذا كان هذا التغير مفيداً؟ وهل كان هناك اختلافاً في البيئة مكّن من حدوث هذا التغير؟

وباختصار، جعلت نظريات دارون علم الأحياء الحديث ممكناً. من الصعوبة بمكان وصف الأثر العظيم الذي تركه دارون على البحوث في علم الأحياء. عندما



عندما كان فرويد طالب طب في جامعة ڤيينا أصبح معجباً بنظرية الاصطفاء الطبيعي المثيرة للجدل التي قدمها عالم الأحياء الإنكليزي تشارلز دارون (في الأعلى).

كان فرويد يحضر في جامعة ڤيينا كان علماء الأحياء يبحثون عن أدلة نظرية التطور فى كل مكان. وكما كتب فرويد فيما بعد «لقد جذبتني اعتقادات دارون بقوة لأنها بشرت بتقدم فوق العادة في فهمنا للعالم» من المرجح أن يكون فرويد، الملحد العلماني الذي كره بشدة الفكر غير العقلانى، سعيداً بنظرية دارون حول أصول الأنواع بعيداً عن الفكر الديني. وكان فرويد قد نقب في أعمال الفيلسوفين لودڤيغ فيورباخ Ludwig Feuerbach وفرانز برينتانو Franz Brentano. عارض فيورباخ بكل ما أوتي من قوة معظم الفلسفة وعلم اللاهوت (وهو دراسة العقيدة الدينية)، داعيا إلى وجوب استبدال علم اللاهوت بعلم أصول الأقوام البشرية وهو دراسة التطور والنمو الإنساني. أما علم اللاهوت فهو مجرد انعكاس للتجربة الإنسانية كما جاء عند فيورباخ. وهذه قضية جادل عنها فرويد مراراً وتكراراً بعد عدة عقود فى كتابيه مستقبل الوهم The Future of Illusion والطوطم والتابو Totem and Taboo. وفي الوقت الذي كان فيه فرويد نهماً على قراءة كتب فيورباخ حضر خمس مقررات مؤلفة من محاضرات وحلقات بحث قام بتدريسها برينتانو الذي لقب نفسه «بعالم النفس التجريبي» أي عالم النفس الذي يدرس

العقل عن طريق الملاحظة والتجربة.

اهتم برينتانو القس السابق بكيفية عمل الفعل وليس بماهية المعلومات التي يكتسبها. كما كان رينتانو عالماً أيضاً لم يفقد إيمانه بالله. وهذا وضع رآه فرويد مثير للاهتمام. يضاف إلى ذلك أن برينتانو كان خبيراً بالفيلسوف الإغريقي أرسطوطاليس وأثره على علم النفس.

وفي السنة الثالثة من دراسته استقر في مختبر مكرس لعلم الفيزيولوجيا وهو دراسة وظائف العضويات الحية ومكوناتها من مثل الأنسجة والأعضاء والخلايا. كان المختبر يدار من قبل إرنست بروك Ernst Brucke وهو أحد علماء ڤيينا البارزين. عمل فرويد هناك لخمس سنوات تلت، وأثناء مسيرة فرويد في الحياة تبنى كثيراً من الرجال بمثابة آباء روحيين ومرشدين حكماء يدين لهم بأعظم الولاء. كان بروك أحد الأوائل، إذ كان يكبر فرويد بأربعين عاماً ويساوي عمره تقريباً عمر يعقوب فرويد.

إلا أنه بالمقارنة مع يعقوب الذي يتصف بالمرح والسلبية كان بروك متحفظاً درب عمل كثير (المطالب). وحيثما كان بروك يحضر الامتحانات الشفهية للطلاب كان يسأل سؤالاً واحداً فقط، وإذا لم يعرف الطالب الجواب لا يسأل مزيداً من الأسئلة ويبقى صامتاً حتى تنتهي فترة 15 دقيقة امتحان. وحينما اكتشف بروك المتصلب

والمتسلط أن فرويد يأتي متأخراً إلى المختبر أصبح يقف خارج الباب في الوقت الذي يقع فيه المختبر وينتظر. لم ينس فرويد أبداً «العينان الزرقاوتان المخيفتان اللتين نظرا بهما إليّ قبل أن أختفي» وهذا انطباع تذكره في كتابه «تفسير الأحلام» ومع ذلك عشق فرويد بروك الذي منحه الإحساس بالانضباط الذاتي المهني. ومثله مثل كثير من أساتذة الجامعة الآخرين في ذلك الوقت كان لبروك اهتمامات ثقافية قوية أيضاً. لقد كان رساماً موهوباً واخترع جهاز كتابة صوتي عالمي مدعياً إمكانية استخدامه في ترجمة جميع اللغات.

أمضى فرويد خمس سنوات يعمل في مختبر إرنست بروك الذي يجري دراسات في علم الفيزيولوجيا. اعتبر فرويد بروك أنه المعلم الخاص له ولم يغادر مختبره إلا حينما اضطر أن يجد وظيفة أكثر دخلاً.

من الناحية المهنية كان بروك عضواً من جماعة من العلماء الذين كرسوا أنفسهم في بواكير العقد الذي يبدأ عام 1840 للتصدي للمذهب الحيوي Vitalism، وهي مدرسة في علم الأحياء فسرت النشاط الحيوي للعضويات على أنه مستمد من قوة حيوية غامضة. يفترض بهذه القوة الحيوية أن تكون غير مادية، على نحو يشبه الروح. اعتقد بروك وزملاؤه جازمين أن القوى الفيزيائية والكيميائية هي وحدها التي تؤثر على العضويات. إن أي فعل للكائن الحيوي أو لعضو من أعضائه يمكن اختزاله إلى قوانين فيزيائية أو كيميائية. حقق المناهضون للمذهب

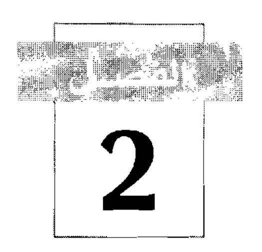
الحيوي من خلال التجريب الدقيق تقدماً كبيراً في علم الفيزيولوجيا وفي دراسة الكيفية التي يتغير بها الإدراك الإنساني بسبب تغيرات في المثيرات الفيزيائية كلمعان الضوء. عندما غادر فرويد مختبر بروك كانت الفكرة التي أفادت بإمكان اختزال أي ظاهرة حيوية إلى قوانين فيزيائية قد ترسخت في عقل فرويد. بعد انقضاء فترة طويلة من ممارسة فرويد المهنية وذلك حينما اكتشف أسباب السلوك الإنساني بحث فرويد عن تفسيرات قامت على ملاحظة العمليات الفيزيائية التي تقف وراء عملية توجيه الطاقة النفسية.

في أثناء عمل فرويد مع بروك نشر عدداً من أوراق البحث حول بنية الأجهزة العصبية عند السمك وجراد البحر Cray fish وكذلك حول بنية الأعضاء الجنسية عند حيوان الأنقليس eel وقدم طريقة جديدة لفصل هذه الأعضاء عن سائر النسج. بذل فرويد ثمانية أعوام للحصول على الدرجة العلمية وهذا يزيد ثلاثة أعوام على معدل الفترة التي يحتاجها عادة طلاب الطب. وفي عام 1879 انقطع عن متابعة دراساته بسبب سحبه إلى الجيش وقد أمضى عاماً في الخدمة العسكرية في وقت السلم يُعنى بالجنود المرضى. ومع ذلك أظهر فرويد أنه قادر على العمل بسرعة أثناء وجوده في الجيش. وخلال ذلك العام ترجم أربعة مقالات للفيلسوف جان ستيوارت مل John Stuart Mill من الإنكليزية إلى الألمانية، وكانت مهمة حصل عليها بتوصية من معلمه القديم فرانز برينتانو.

بعد نجاحه في امتحانات التأهيل للحصول على الدرجة العلمية في الطب، حصل فرويد على وظيفة قليلة الأجر وهي وظيفة معيد في معهد بروك للفيزيولوجيا.

وقد ترك المعهد فقط حينما لم يكن لديه أي خيار آخر. لم يكن فرويد غبياً أو بطيئاً لكنه لم يتوافر لديه حافز قوي لترك المختبر الذي استمتع بإجراء البحوث فيه والقدرة على العمل المنتج فيه. على أية حال لم يكن في مقدور بروك أن يقدم الدعم بشكل دائم إلى طالبه.

وربما كان فرويد ينتظر بفارغ الصبر الحصول على منحة مساعد باحث في مختبر بروك. ومن سوء الطالع بالنسبة لفرويد أن كلا مساعدي بروك كانا صغيري السن وكان من غير المحتمل أن يتركا عملهما. ويضاف إلى ذلك أن المال قد أصبح بشكل متزايد مهماً جداً بالنسبة لفرويد. فقد التقى بامرأة شابة تدعى مارثا بيرنيز Martha Bernays في شهر نيسان من عام 1882 أثناء زيارتها لإحدى شقيقاته. بعد شهرين تمت خطوبة فرويد على بيرنيز. افتقد المخطوبان للمال اللازم لإقامة دار الزوجية، ومع ذلك انتهز بروك الفرصة ليخبر فرويد أن لا يتوقع أبداً أن يستطيع إعالة زوجه من خلال عائدات عمله في البحث. وخلال ستة أسابيع من خطوبته، بدأ فرويد عملاً جديداً بصفته متدرباً مبتدئاً في مشفى ڤيينا العامة.



التجــارب

كانت مارثا بيرنيز امرأة ذات تأثير كبير على سيغموند فرويد، امرأة ذكية وجذابة عمرها 21 سنة عندما التقى الزوجان في شهر نيسان من عام 1882 وكان عمر فرويد حينذاك 26 سنة. امتازت عائلة بيرنيز بالثقافة العالية إذ كان جدها إسحاق بيرنيز Isaac Bernays كبير الحاخامات اليهود في هامبورغ وكان اثنان من أعمامها قد تعلما في الجامعات الألمانية. أما أبوها بيرمان Berman فقد كان تاجراً وعمل أيضاً سكرتيراً لشخصية اقتصادية مشهورة في ڤيينا هو لورينز ڤان ستاين Lorenz Von Stein. جاءت عائلة بيرنيز إلى ڤيينا قادمة من هامبورغ في ألمانيا في عام 1869 حينما كانت مارثا ثمانية أعوام وأصبح بين عائلتي بيرنيز وفرويد صداقة. وغالباً ما كانت مارثا تزور شقيقات فرويد وتزوج شقيق مارثا إلي Eli من شقيقة سيغموند أنّا في عام 1883.

لم تكن مارثا ذاتها مثقفة على كافة المعايير لكنها كانت مع ذلك متربية تربية تكفيها في زمانها. فقد كانت على إطلاع بالأدب الألماني وكانت قارئة شرهة في المساء فقط. لم تسمح لنفسها قط أن يمضي وقت ضائع يمكن أن تقوم فيه بعمل ما أثناء اليوم. ليس هناك إلا النذر القليل عما تم تدوينه من أفكار لها حول خطبتها لفرويد، كما لم يتم الكشف العلني عن رسائلها إلى فرويد إلا في عام 2000.

وفي الأعوام اللاحقة أظهرت مارثا مواهبها في الإدارة الرصينة والفعالة لشؤون بيتها وقد تحملت وتصدت لمشاعر الغيرة عند فرويد أثناء فترة الخطوبة (كما دلت رسائله إليها على ذلك) واستطاعت فيما بعد أن ترعى وتتدبر شؤون بيت فرويد، الذي احتوى على ستة أطفال وعدد من الخدم، بعناية وصبر. كانت مارثا آمنة مطمئنة لا تتكدر بسهولة، وتستطيع أن تتحكم بمشاعرها إلى درجة تبدو معها باردة عاطفياً. استذكر ابنها مارتن Martin فيما بعد حادثاً حصل معه عندما وقع على قطعة من الأثاث المنزلي وجرح رأسه فتلطخ بالدماء لم تصرخ مارثا أو حتى لم تضع جانباً خياطتها وعوضاً عن ذلك طلبت ببساطة من المربية أن تستدعي الطبيب الذي يقطن في نفس الشارع وتابعت خياطتها.

وخلال فترة زواجها كانت مارثا مديرة فعالة وهادئة. وكما جاء على لسانها في أحد المرات «أتجنب أي نوع



مارثا بيرنيز في عام 1884، عامين قبل زواجها من فرويد.

من أنواع الظهور العلني وأؤمن بالمثل القائل أن أفضل زوجة هي تلك التي يقال عنها أقل ما يمكن قوله».

وجوهر القول هو أنها قد عاشت باستقلالية عن زوجها وحيث إنه أعطاها مخصصات الإنفاق على شؤون المنزل وكانت تضمن تحضير مائدة الغداء الساعة الواحدة بعد الظهر تماماً. لم تكلف مارثا نفسها عناء الاطلاع الواسع على عمل زوجها وبشكل عام لم تسافر معه في الإجازات التي لا يكون فيها الأطفال مسافرين أيضاً. وكذلك أقامت حياتها الاجتماعية بمعزل عن زوجها ممارسة الملاطفة الدبلوماسية في العلاقات مع الأصدقاء ومع الأقارب الذين أساء إليهم فرويد. كذلك تجاهلت مطالب فرويد في أن تستغني عن أفراد معينين من مثل صديقتها **إليس** Elise التي عبرت عنها مارثا بدقة فقالت «**تزوجت قبل زفافها**».

عندما التقى فرويد بمارثا بيرنيز فإن كل ما رآه فيها هو امرأة شابة وديعة ونحيلة شاحبة. وكادت مارثا أن تتزوج رجل أعمال عجوز لولا أن أقنعها شقيقها إلي بالإعراض عن ذلك، وموضحاً لها أن تحرص على الزواج مِن مَن تحب فقط. وفي الليلة المصيرية من شهر نيسان عام

1882 كانت مارثا تزور عائلة فرويد عندما وصل سيغموند إلى البيت قادماً من مكان عمله في الجامعة ومن عادة سيغموند ألا يتوجه مباشرة إلى غرفته للدراسة. وفي ذلك المساء رأى مارثا تتسامر بمرح مع شقيقاته وكان لذلك وقع على قلب هذا الشاب، فقد كتب رسالة بعد أعوام إلى مارثا يخبرها أنه أصبح شخصاً خرافياً «منذ أن علمت أن النظرة الأولى للفتاة الصغيرة وهي جالسة عند الطاولة الطويلة المألوفة جداً بالنسبة لي تتحدث بذكاء بينما هي تقشر التفاحة بأصابعها الناعمة، قد استطاعت أن تحدث لي ارتباكاً مديداً جداً».

صعقت العائلة عندما جلس سيغموند عند الطاولة وأخذ يشارك في الحديث وأصبح يفعل ذلك كل مرة تبدو فيها مارثا. وخلال بضعة أسابيع أخذ سيغموند يرسل وردة في كل يوم إلى مارثا.

كان المراقب الشديد والطالب المجد والعالم العقلاني يدعو مارثا بيرنيز بـ«الأميرة الجميلة التي يتساقط من شفتيها الورد واللؤلؤ».

لقد أحبها سيغموند بشغف من اللحظة التي التقى بها.

ومن سوء طالع فرويد وبيرنيز أن أحداً منهما لم يملك المال اللازم للزواج. ولأسباب متنوعة تأخرا في إبلاغ عائلتيهما عن خطوبتهما لمدة ستة أشهر. أثناء ذلك الوقت قررت والدة مارثا أن تعود إلى هامبورغ على

الرغم من أن شقيقة مارثا مينا Minna كانت قد عقدت خطوبتها على رجل من ڤيينا. اضطر كل من بيرنيز وفرويد أن يعيشا في مدينتين مختلفتين لمدة ثلاث سنوات من أصل الأربع سنوات ونصف سنة من فترة الخطوبة. وهذا لم يكن أمراً غير اعتيادي فقد بقيت والدة مارثا ذاتها مخطوبة لمدة تسع سنوات. إلا أن الأمر بالنسبة إلى فرويد كان فترة عذاب شديد. ولكي يبقيا على صلة ببعضهما البعض تبادل فرويد وبيرنيز الرسائل بشكل متناوب يوم برسالة ويوم بلا رسالة. أظهرت رسائل فرويد إخلاصه وشروطه. فقد ألحّ عليها أن تكون فاترة مع معجبيها وأمرها أن تنادي ابن عم لها بلقبه بدلاً من اسمه الأول. وبلغ به الحرص عليها أن طلب منها أن تقلع عن رياضة التزحلق عل الجليد وإلا فإنها ستفقد توازنها وتتكئ على ذراع رجل آخر. كما عبر عن اعتقاده بأن إعطاء حق التصويت للنساء أمر سخيف، على اعتبار أن مسؤولياتهم تنحصر في المنزل. كذلك طالب مارثا أن تستغني عن ديانتها اليهودية الأرثوذوكسية عند الزواج. وبالفعل توقفت مارثا عن ممارسة ديانتها اليهودية لكنها كانت منزعجة في أعماقها من مطلب فرويد. بعد مماته أشعلت القناديل التقليدية للدلالة على عيد السبت اليهودي في ليلة كل يوم جمعة.

وكان فرويد قد وصف منزل المستقبل لأسرته على أنه مكان تجتمع فيه جميع مواصفات الراحة لدى الطبقة الاجتماعية المتوسطة:

كل ما نحتاج إليه غرفتان أو ثلاث غرف حيث نستطيع أن نعيش ونأكل ونستقبل الضيف وإلى موقد يحتفظ بالنار التي تطهو الطعام. والأشياء الملحقة كالطاولات والكراسي والأسرّة والمرآة وساعةٌ تذكر السعداء بمرور الوقت وكرسي مريح ذو ذراعين لقضاء ساعة من أحلام اليقظة العذبة، وسجادات تساعد ربة المنزل على إبقاء الأرض نظيفة وبياضات مطوية على شكل رابطة عنق ومتوضعة على الرفوف، وملابس مكوية حديثاً وقبعات مزدانة بالأزهار الاصطناعية ولوحات جدارية وكؤوس المياه العذبة وللخمر في المناسب الاحتفالية وأطباق وصحون ومكان للأطعمة المحفوظة لوقت الشدة الذي يأتي فجأة وعند قدوم ضيف بشكل غير متوقع وحزمة مفاتيح تقرقع بصخب ومصباح وديع وكل شيء يجب أن يبقى على نحو مرتب ومنظم، وإلا ستعترض ربة البيت التي جعلت قلبها علي كقطعة من قطع الأثاث.

في رسالة أخرى علق فرويد فيها قائلاً «لدي انطباع أن أفضل امرأة في العالم تعتقد اعتقاداً لا هوادة فيه فتعتبر أن الزوج مكمل ضروري ـ وهذا حق ـ للبيت السعيد».

إن تقديم الدعم للزوجة والبيت أمر مكلف مادياً، إذ قبل ستة أشهر من زواجهما وبينما كانا يحاولان تدبير المال اللازم لتأمين أثاث المنزل، كتب فرويد إلى بيرنيز قائلاً: «آه يا عزيزتي الصغيرة، ليس عندك إلا علة صغيرة واحدة وهي أنك لم تربح اليانصيب قط». عندما غادر مختبر بروك لم يكن معه سيولة نقدية وكان يتخلف بثلاث سنوات عن أقرانه الذين باشروا مزاولة مهنة الطب فور حصولهم على درجاتهم العلمية. من عام 1882 إلى عام

1885 عمل فرويد جاهداً لاكتساب الخبرة التي يحتاجها في ممارسة الطب العيادي.

لقد تدرب في معظم الأقسام الطبية بما في ذلك أقسام الجراحة والجلدية والعينية بالإضافة إلى الطب النفسي والأمراض العصبية. ومع ذلك أراد فرويد أيضاً أن يصنع اكتشافاً عظيماً. فإن وجد بعض النتائج الجديدة المثيرة فسوف يصبح مشهوراً. وإن أصبح مشهوراً فسوف تكون عنده عيادة خاصة كبيرة وسوف يحصل على المال الوفير ليقيم حفل زفافه على مارثا بيرنيز دون أدنى تأخير. وبسبب حماسه الشديد للزواج تسببت مارثا حبيبة فرويد بشكل غير مباشر بواحدة من أهم النكسات العلمية التي تعرض لها. أثناء سعيه وراء الشهرة جرب طريقة جديدة في صباغة النسيج ـ وهي عملية صبغ الخلايا لكي تبدو بشكل أوضح تحت المجهر ـ مستخدماً كلوريد الذهب gold chloride إلا أن تقانته هذه لم تعط نتائجاً ثابتة. كما نشر أيضاً ورقة بحث عن مريض يعاني من نزف دماغي إلا أن ذلك أخفق في جلب التقدير له. فاحتاج إلى البحث عن فكرة أفضل. وحتى يكون قادراً على الزواج من «فتاته الحلوة والناعمة» كما كان يخاطبها في رسالة تقدمه للخطوبة منها، بدأ فرويد يستكشف عن عقار الكوكائين.

وفي باكورة العقد الذي يبدأ بعام 1880 لم تكن استخدامات الكوكائين شائعة أو رديئة السمعة كما هي

حالها اليوم. فلم يكن العلماء قد بحثوا بعد خصائص هذا العقار، أصبح فرويد مهتماً بالكوكائين بعد قراءته تقريراً لأحد أطباء الجيش الألماني يقول فيه أن هذا العقار يزيد من قدرة التحمل عند الجنود. وحال فرويد حال كثير من الباحثين الآخرين في وقتنا الحاضر فقد قرر أن يختبر هذا العقار على نفسه وكانت له دواعيه الشخصية. لقد عانى فرويد لسنوات كثيرة من نوبات الاكتئاب. لقد أصبح متعباً ومؤرق المزاج وغير قادر على العمل. وحينما أخذ جرعات صغيرة من الكوكائين وجد أنها تساعده على العمل وعلى اكتساب طاقة جديدة. أصبح فرويد سعيداً بهذا الاكتشاف وكما جاء في رسالته إلى مارثا «وإذا كنت عنيدة فسترين من الأقوى فتاة صغيرة ناعمة تأكل قليلاً من الطعام أمام رجل كبير متوحش يحتوي جسمه على الكوكائين. في نوبة الاكتئاب الشديدة الأخيرة التي اعترتني أخذت الكوكا مرة ثانية فرفعتني جرعة صغيرة إلى الأعالي على نحو رائع. والآن أنا مشغول تماماً بجمع الآثار الأدبية للبحث عن أغنية الامتنان لهذه المادة السحرية».

لم يعان فرويد ذاته من أية آثار جانبية من هذا العقار، بل واصل العمل لينشر ورقة بحث عنوانها «في موضوع الكوكا on coca» (وهو النبات الذي تم استخراج الكوكائين منه) في شهر تموز من عام 1884 اقترح فرويد الكوكائين كمخدر موضعي وكعلاج للإرهاق وأمراض المعدة والإدمان على المورفين، حتى إنه أرسل عينات

من العقار بالبريد إلى بيرنيز موصياً إياها أن تأخذ جرعة عندما تشعر أنها متعكرة المزاج. كانت حماسة فرويد سبباً في سقوطه. ففي صيف عام 1884 ذكر فرويد خصائص الكوكائين المسببة للخدر إلى صديقين مختصين في طب العيون ليوبولد كونيغستاين Leopold Königstein وكارل كوللر Carl Koller حتى إن فرويد قد أعطى جرعة من الكوكائين إلى زميل متدرب في الطب الذي صرح أن هذا العقار قد سبب الشعور بالخدر في شفتيه ولسانه. بدأ فرويد وكونيغستاين بتجريب آثار الكوكائين على عين كلب، إلا أن البحث توقف بسبب عطلة فرويد الصيفية في شهر تموز.

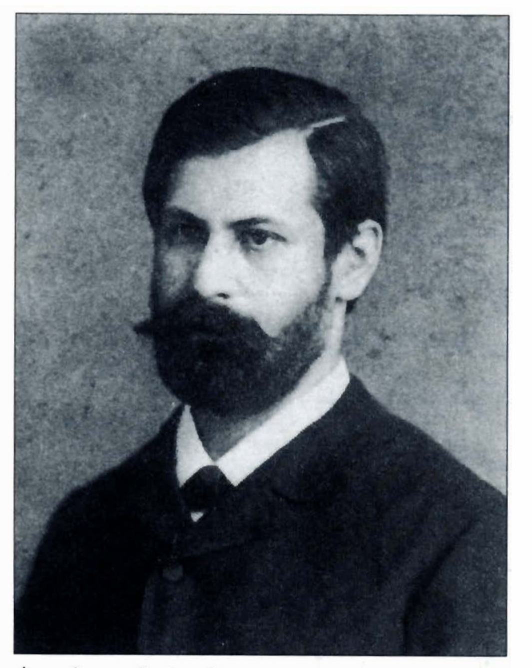
اندفع فرويد مسرعاً للقاء بيرنيز التي لم يزرها منذ سنة. وحينما عاد في شهر أيلول وجد أن كوللر وكونيغستاين قد أجريا وأعلنا عن تجاربهما في استخدام الكوكائين كمخدر موضعي على العين، ومن أجل الإنصاف كان كوللر قد حاول أن يجد مخدراً موضعياً للاستخدام في عمليات العين الجراحية منذ بعض الوقت قبل أن يعطيه فرويد الجرعة المثيرة. أدى اكتشاف كوللر إلى نقلة نوعية في جراحة العين وجلب له شهرة فورية. أما فرويد فقد بقي طبيباً شاباً فقيراً غير متزوج وغير معروف.

لم يكتف تأثير الكوكائين على حياة فرويد بهذه النهاية العلمية المأسوية بل كان قد وصف الكوكائين لأحد

الأصدقاء ويدعى إرنست ڤان فليستشل ـ ماركو Ernst Von Fleischl-Markow للاستشفاء من الإدمان على المورفين بمساعدة دواء فرويد تمكن فليستشل ماركو أن يتوقف عن تعاطي المورفين، لكنه سرعان ما أصبح مدمناً على الكوكائين واستمر في إساءة استخدام العقار إلى مماته في عام 1891. وبينما كان جسد وعقل فليستشل ماركو يتحللا مع أخذ الحقن يومياً بدأت التقارير الطبية عن إدمان الكوكائين تصل من كافة أنحاء العالم. تعرض فرويد للهجوم بسبب تحمسه للكوكائين وانتهى به الأمر إلى الإقلاع عن الموضوع كلية.

إلا أنه استمر هو نفسه في تناول العقار أحياناً لعدة سنوات ليعينه على تحمل أطراف النزاع خلال الفترة التي قضاها في باريس ولمكافحة صداع الشقيقة المتكرر وآلام المعدة وليخفف من تورم الأنف. ومن المؤسف أن كان للكوكائين أثراً أسوأ مما كان عليه الحال بالنسبة لمشكلات الأنف والشقيقة عند فرويد.

ومن المفرح أن أبقى فرويد نفسه مشغولاً بالتجريب على الكوكائين. لقد مكنه عمله كطبيب في مشفى وكمساعد نشيط لأستاذه القديم بروك أن يحصل على منحة دراسية خارجية. ففي خريف عام 1885 غادر ڤيينا ليزور حبيبته مارثا ومن هناك بدأ رحلته إلى باريس ليدرس تحت إشراف النجم الطبي الفرنسي جين مارتن تشاركو Jean Martin Charcot لمدة خمسة شهور في



سيغموند فرويد في عام 1885 قبل سفره بقليل إلى باريس للدراسة مع الطبيب الفرنسي جين مارتن تشاركو.

مشفى سالبترير Salpêtriere. أحدث تشاركو ابتهاجاً عند الأمة الفرنسية من خلال استخدامه للتنويم المغناطيسي. وفي سنوات العقد الذي يبدأ بعام 1870 ترأس جناحاً كبيراً في مشفى للمرضى الذين يعانون ما كان يطلق عليه حينئذ بالصرع الكبير grand malepilepsy، وهو مرض في الجهاز العصبي يتميز بحدوث نوبات اختلاجية. يفقد المرضى خلال هذه النوبات الوعي ويصبح لونهم شاحباً جداً ويظهر الزبد على الفم ويصاحب ذلك اختلاجات وكان في الجناح أيضاً مرضى آخرين لا يعانون من مرض الصرع لكنهم اكتسبوا بالتعلم نوبات الصرع فقيل عن هذه الفئة الثانية من المرضى أنها تعاني من الهستيريا.

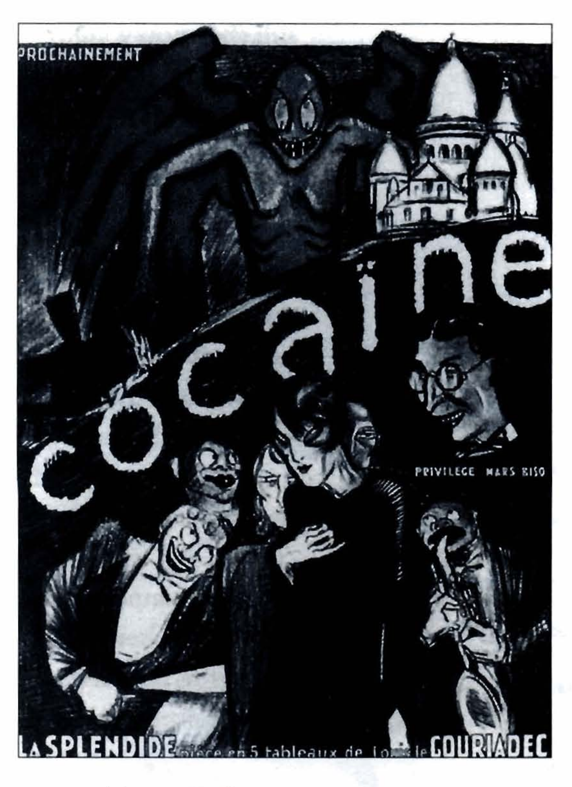
حصل اضطراب الهستيريا على عدد كبير من التعريفات عبر القرون. تعود جذور المصطلح ذاته إلى كلمة يونانية تعني الرحم (وهي أيضاً مصدر كلمة الرحم Uterus وكان يعتقد أنه مرض له صلة بأعضاء التكاثر عند المرأة منذ زمن مصر القديمة وحتى القرن التاسع عشر. وكان للإغريق القدماء نظرية مفصلة عن الهستيريا، حيث اعتقدوا أن المرأة التي لا تقيم علاقات جنسية كالأرملة أو العانس ستشهد تغيرات في رحمها.

إذ يجف الرحم ويصبح أقل وزناً ويطفو نحو أعلى الجسم. فإذا حصل أن استقر الرحم في البلعوم ستشعر المرأة بكتلة في بلعومها وقد تواجه صعوبات في التنفس. كتب الطبيب الإغريقي هيبوقراط Hippocrates قائلاً: «عندما تعاني المرأة من الهستيريا أو من مخاض عسير فإن نوبة من العطاس تكون مفيدة لمثل هاتين الحالتين». ربما يدفع ذلك الرحم نحو الخلف إلى موقعه الأصلي. في القرن السادس عشر أظهر عدد من علماء التشريح المختلفين أن الرحم مرتبط بإحكام في الجسم ومن غير المحتمل أن يتحول فيه. كما صرح طبيب إنكليزي يدعى توماس سيدنهام Thomas Sydenham أن «المحن السابقة» أو الرضوض النفسية هي سبب المعاناة من الهستيريا.

إلا أنه لا يزال ينظر إلى الهستيريا على أنها مرض المرأة. قبيل عام 1813 ادعى الطبيب الفرنسي فيليب بينيل Philippe Pinel، الذي اشتهر بتحرير المرضى المحجور عليهم في المصحات العقلية من القيود والأصفاد أثناء حدوث الثورة الفرنسية، أن الهستيريا هي نتيجة للحرمان الجنسي عند المرأة. حينما تكون المرأة المحرومة جنسياً غير متزنة عاطفياً وتكون قد انغمست من قبل في موضوع الجنس بطرائق أخرى (كقراءة المجلات الجنسية) عندئذ ستظهر عندها الهستيريا. وللاستشفاء من هذا المرض أوصى ضحايا المرض اللاتي يعانين من حيضات غير منتظمة أن يستعيدوا عمليات الطمث المنتظمة بواسطة مجموعة متنوعة من العلاجات وأن تمارس النساء عمليات

الجماع الجنسي مع أزواجهن قبل حلول فصل الشتاء.

قبيل دخول فرويد إلى كلية الطب، لم تكن الأمور قد اختلفت كثيراً عن ذي قبل إلا أن الهستيريا لم تعد مرض النساء على وجه التحديد، فقد كان هناك تقارير كثيرة عن توافر ضحايا للمرض من الذكور، ومع ذلك ظل ينظر إليه على نطاق واسع أنه ناجم عن الرغبات الجنسية المحبطة.



خلال الجزء الأخير من القرن التاسع عشر اختبر كثير من العلماء ومنهم فرويد الكوكائين على أنفسهم. لكن الباحثين أضحوا بسرعة واعين للمخاطر الناجمة عن استخدام هذا العقار الفعال. هذا الإعلان من مسرحية فرنسية تمثل بعض جوانب الخطورة المصاحبة لهذا العقار.

رأى كثير من الأطباء أن الهستيريا ما هي إلا تجل لعيوب فطرية عند النساء. وقبل هذا وذاك ألم تك النساء خاضعات لعواطفهن وغير متزنات بالفطرة؟ كما لاحظ البعض الآخر أن الهستيريا هي أنجع طريقة عند النساء لكي يتمردن على مسؤولياتهن النسائية المفروضة عليهن. إن المرأة التي لم تكن راضية على أن تعامل كمجرد أم أو ربة منزل تكدح في المحافظة على بيتها وتلبية حاجات زوجها وأطفالها لا تستطيع أن تترك وظيفتها هذه بسهولة وعوضاً عن ذلك تستطيع أن تصبح مريضة فتتحرر من أعمال المنزل وتبتعد بسهولة عن أطفالها ويسعى زوجها إلى القلق عليها جاهداً في إحضار

الأطباء والأدوية لها، إن باستطاعة المرأة الهستيرية أن تتحكم بأهل بيتها وفي الوقت ذاته تتحرر من الواجبات التي تمقتها. وبالطبع لا تقصد ضحية المرض بأي حال من الأحوال أن تكون مريضة أو أن تفتعل الأعراض لكنها «تتحدث من خلال جسدها» تقول بمرضها الشيء الذي لا تستطيع التعبير عنه مباشرة. اقترح بعض الأطباء علاجات جراحية مريعة أو «علاجات الراحة» حيث يتم فيها عزل المريضة عن عائلتها وتوضع على سرير في غرفة مظلمة ولا يسمح لها بالخروج منها لمدة شهر. ومهما تكن العوامل المسببة للهستيريا فإنها لم تبدو في أغلب الأحيان على أنها كانت مرض النساء في القرن التاسع عشر رغم وجود بضع قليل من الضحايا الذكور.

في سنة 1885 سافر فرويد إلى باريس ليدرس مع جان - مارتن تشاركو للدراسة حول مرضى الصرع والهستيريا.

بعد الحرب العالمية الأولى، اختفى المرض فعلياً وبقي الباحثون يتساءلون فيما بينهم عن سبب حدوث هذه الظاهرة. أفاد بعضهم أن ذلك يعود إلى التغيرات التي طرأت على الظروف الاجتماعية، وادعى آخرون توقف أطباء القرن العشرين عن تشخيص الهستيريا كمرض رغم استمرار العديد من المرضى في إبداء «الأعراض الهستيرية». أما تجربة فرويد مع الهستيريا فيمكن التعرف عليها من خلال طبيبين فرنسيين الأول تشاركر والثاني بول بريكيت

Paul Briquet. في عام 1859 اتخذ بريكيت خطوة جريئة ما جرى فعلياً دراسة مسحية للأعراض التي تبدو عند 430 مريضاً هستيرياً مقيمين في مشفى تشاريت Hospital de la Charite في باريس، فاكتشف حقيقتان تناقضان الفرضية الجنسية:

الحقيقة الأولى هي أن رجلاً واحداً يعاني من الهستيريا مقابل 20 امرأة مريضة بالهستيريا والحقيقة الثانية هي أنه في الوقت الذي نادراً ما تعاني المربيات من الهستيريا، فإن كثيراً من المومسات يعانين منها. من الواضح أن الحرمان الجنسي ليس هو السبب لهذا المرض. أفاد بريكيت أن الهستيريا هو مرض في الجهاز العصبي معرفاً إياه على أنه «عصاب (مرض عصبي) الدماغ ويتجلى بشكل رئيسي باضطراب في الوظائف الحيوية ذات الصلة بعملية التعبير عند العواطف والانفعالات» ووفقاً لما يقوله بريكيت: تنشأ الهستيريا عند الأفراد الحساسين عندما تغمرهم مشاعر عنيفة.

اعتقد كل من تشاركو وبريكيت أنه ستظهر عند الأشخاص الهستيريون نوبات اختلاجية حينما يشعرون بانفعال شديد أو حينما يتعرضون للشدة النفسية. إلا أن هذه النوبات تختلف عن النوبات الصرعية. حدد تشاركو ومساعده أربع مراحل للهجمة الهستيرية وجعل ذلك معياراً للتمييز بين مرضى الصرع ومرضى الهستيريا والمراحل الأربع هي «أورا Aura» أو التخدير القبلي من

الهجمة وثانيها الهجمة ذاتها، عندما يصيح المريض، وثالثها فقد الوعي والمعاناة من التشنجات وهي مرحلة التهريج Clownish عندما يبدي المريض إيحاءات تشبه التعبيرات المسرحية للعواطف الرئيسة ورابعها انحلال النوبة وذلك عندما يبكي المريض أو يضحك كان تشاركو مأخوذاً بالغاية الظاهرة التي تقف وراء هذه الهجمات إذ يبدو المرضى وكأنهم يحاولون أن يخبرونا بشيء ما. كما كان مأخوذاً أيضاً بالطريقة التي تتشابه فيها الهجمات مع تقارير عن الاستحواذ الشيطاني للأرواح التي تحاول أن تدخل إلى الجسد. لقد كان تشاركو مثل فرويد متحمساً لأن يبين أن جميع أفعال العفاريت والأرواح والأشباح الشريرة يمكن تفسيرها بواسطة العلم.

من الواضح أن المرضى الهستيريين لم يكونوا على يقين في أنهم لا يعانون من مرض عضوي وأنهم لا يعانون من الصرع. ويشبه ذلك إلى حد كبير حال المرضى المنومين مغناطيسياً الذين لا يستطيعون تذكر التعليمات المعطاة لهم من قبل المنوِّم بعد أن يستفيقوا من غشيتهم. أصبح تشاركو تباعاً لذلك مهتماً بالطرائق التي تستطيع فيها الأفكار، التي لا يصل إليها الوعي الطبيعي، أن تؤثر على العقل.

في عام 1880 كان اهتمامه منصباً بشكل رئيسي على الشلل الهستيري. لا يبدي هذا النوع من الشلل النفسي الأعراض التي تبديها أنواع الشلل العضوي. وعلى سبيل

المثال لاحظ فرويد ذاته أنه في الوقت الذي تكون فيه أنواع الشلل العضوي بعامة أكثر حدة في أجزاء الجسم التي تبتعد عن الجذع كالقدمين واليدين فإنه من الممكن أن يكون الكتفين في الشلل الهستيري أكثر تأثراً.

كتب فرويد فيما بعد عن الهستيريا قائلاً «أنها تتصرف وكأن بنية الجسم غير موجودة أو كأنها لا علم لها عنه». وبعبارة أخرى يتجلى الشلل الهستيري وفقاً للطريقة التي يعتقد بها الناس عن آلية عمل الشلل المفترضة وليس كما يتجلى الشر فعلياً في الواقع. لقد كانت قفزة قصيرة بالنسبة إلى تشاركو عليه أن يقفزها من البحث في الهستيريا، حيث لا يعلم المريض ذكراً كان أم أنثى أنه مريض، إلى دراسة التنويم المغناطيسي، حيث لا يعي الشخص المنوَّم مغناطيسياً بالتعليمات التي تتحكم بسلوكه.

لم يستعرض تشاركو الفرق بين الشلل الهستيري والشلل العضوي فقط بل استطاع أيضاً أن يحدث حالة شلل هستيري لدى الأفراد الخاضعين للتنويم المغناطيسي. أظهر تشاركو أن الأمراض الهستيرية ذات أساس نفسي وليس عضوي وأن هذه النوبات الاصطناعية والأعراض الغريبة الأخرى هي في النهاية لا تبدأ من الجسد وإنما من العقل.

وصل فرويد إلى باريس مثل المسكين في قاعة الملك، لقد كان طالباً شاباً في الطب ونمساوياً يتكلم

الفرنسية بصعوبة ويهودياً في عالم الأميين (الغوييم) Gentiles وشاباً انفصل كليةً عن أسرته وأصدقائه لأول مرة في حياته. تشاركو من ناحية أخرى كان أشهر طبيب في فرنسا على الإطلاق يقع بعد لويس باستور Louis Pasteur مكتشف لقاح داء الكَلَب ومخترع عملية البسترة. وهي طريقة للقضاء على العضويات الضارة في اللبن والأطعمة الأخرى. ومن خلال قوة الإدارة، وبمساعدة موهبته السياسية وزوجته الفنية جعل تشاركو من مشفى سالبترير واحدة من أهم المدارس الطبية الفاخرة في فرنسا. وبالفعل ليس هناك طبيب في الأمراض العصبية مشهور في فرنسا إلا وقد درس فيها. إن استعراض تشاركو الأسبوعي لمرضى الهستيريا ومحاضراته عن علم الأعصاب جذبت حضوراً كبيراً من المشاهدين.

وصف فرويد انطباعه الأول في رسالة بعثها إلى مارثا بيرنيز:

«قَدِم إم. تشاركو الساعة العاشرة، وهو رجل طويل القامة يبلغ من العمر ثمانية وخمسون، ذو قبعة حريرية على رأسه بعينين غامقتين ذواتا فضول طفيف (إحداهما غير معبرة ولها نظرة باتجاه الداخل)، وله شعر طويل مثبت خلف أذنيه، ذو حلاقة ناعمة للذقن ووجه ذي ملامح معبرة وشفتين ناتئتين وممتلئتين وباختصار، يشبه قسيساً دينوياً يُتوقع منه حصافة كبيرة ويعرف كيف يحيى حياة سعيدة».

لقد أمتع تشاركو الفنانين وجعل رؤوس رؤساء الدول تنحني أمامه وكان يدير مشفاه من بعيد، ونادراً ما كان

يمضي وقتاً في أقسام المشفى مع طلابه. في عام 1885 كان يستعرض بانتظام أمام الردار «المراحل الثلاث للهستيريا» التي اكتشفها عند مرضى مختلفين. ولسوء الطالع أن جعل عدم الانتباه عند تشاركو أن يكون غير مدرك بأن مرضاه الأذكياء القابلين للإيحاء كانوا قد تدربوا مراراً من قبل على أداء المراحل الثلاث للهستيريا بواسطة منومين غير أكفاء يعملون في أقسام المشفى الذين ساعدوا على تشكل المرض عندهم عوضاً عن معالجتهم.

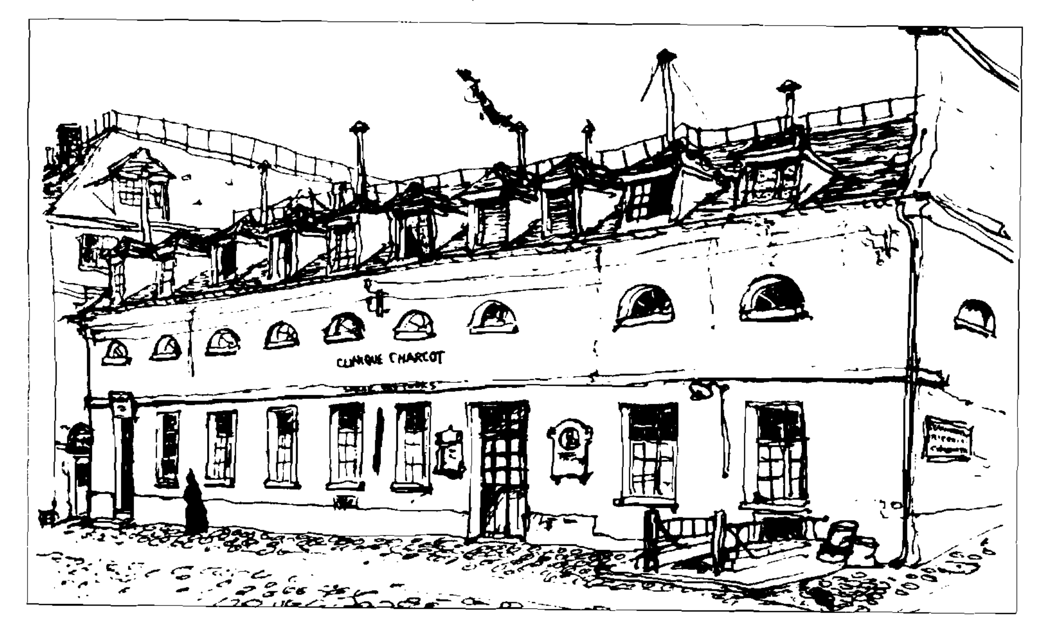
كتب فرويد إلى بيرنيز عندما جاء أول مرة «أعتقد أنني أتغير كثيراً، إن تشاركو الذي يعتبر واحداً من أعظم الأطباء ورجلاً يتمتع بفطنة فذة قد قضى ببساطة على أفكاري وأهدافي. . . الذي أعرفه بكل تأكيد هو أنه لا أحد في هذا العالم استطاع أن يؤثر بي كما فعل هو». لقد أكثر فرويد في تشاركو حرصه الشديد على اكتشاف دليل عضوي لأسباب وآليات المرض. أثناء إحدى المحاضرات الطبية، أحب فرويد أن يتذكر أحد الطلاب الذي خالف الأستاذ الكبير قائلاً «لكن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحاً، لأنه يناقض «نظرية يونغ هيلمهولتز Young-Helmholtz» أجاب تشاركو «النظرية جيدة لكنها لا تمنع الأشياء في الواقع من الحدوث». أخذ فرويد هذه المقولة على أنها شعاراً له. ولسوء الحظ، فعل تشاركو الأمر ذاته حينما لم يحاول أبداً أن يفسر آلية عمل تنويمه المغناطيسي. أتى فرويد إلى مختبر تشاركو ليدرس التغيرات التشريحية في أدمغة الأطفال المشلولين وأراد أن يجري تشريحاً تحت المجهر.

وخلال الأسابيع الستة من قدومه أعرض فرويد عن المشروع. فقد أدرك أنه لم يصبح بعد جزءاً من حلقة تشاركو المقربة منه من الطلاب المقربين الموظفين المشاركين في البحث. لقد بقي مجرد عابر سبيل لم يستحق حتى الدعوة إلى الحفلات الاجتماعية التي كان يقيمها تشاركو. إن شعوره بالإحباط والتجاهل جعله على وشك أن يغادر باريس عائداً إلى بيرلين في بداية شهر كانون الأول. بعد ذلك حاول محاولة أخرى للانضمام إلى حلقة تشاركو المقربة منه. وفي رسالة مكتوبة بلغة فرنسية ممتازة بمساعدة صديق يجيد اللغة، عرض فرويد على تشاركو أن يترجم له مجلده الثالث من المحاضرات عن الجهاز العصبي إلى اللغة الألمانية. قبل تشاركو العرض وبدأ فرويد عمله الحقيقي في سالبيترير مصبحاً تلميذ تشاركو.

وقبيل وقت مغادرة فرويد لباريس بشكل نهائي في 28 شباط من عام 1886 كان قد أضحى عضواً كاملاً في عصبة تشاركو. وكان قد زار منزل تشاركو الممتلئ بإسراف بالتحف عدة مرات وحضر فيه ثلاث حفلات. ومع ذلك لم يستمتع بحضور هذه الحفلات لكنه استمتع بكونه مدعواً إليها. أشار فرويد إلى تشاركو في كتاباته المتأخرة على أنه واحد من أعظم أساتذته ولعل ذلك يعود إلى اعتماد أعمال فرويد إلى حد كبير على أفكار تشاركو.

في باريس، أجرى فرويد عدداً من الملاحظات العلمية تبين له فيها أن الحرمان الجنسي ليس هو السبب الوحيد في حدوث الهستيريا، إذ أن الهستيريا متلازمة يمكن أن تتأثر بفعل الخبرات النفسية عند المرضى. كما يظهر أن هناك صلة بين الهستيريا والتنويم المغناطيسي تقوم على آلية مجهولة، لا يستطيع المريض أن يكشف النقاب عنها وكانت هذه الفكرة الأخيرة حاسمة بالنسبة إلى فرويد في أعماله اللاحقة. لدى مرضى الهستيريا أكثر من حالة واحدة من حالات الوعي أو الشعور إذ بمقدورهم أن ينفذوا أوامراً معطاة لهم وهم في فترة الغشية، بعد أن يخرجوا من حالة التنويم. وكما جاء في كتابات فرويد المتأخرة «حصلت على أعمق انطباع عن احتمال وجود عمليات عقلية فعالة بقيت رغم ذلك خافية

مشفى تشاركو السالبتيرير كانت واحدة من أفخم المؤسسات الطبية في فرنسا قاطبة.



صعود وهبوط التنويم المغناطيسي

لقد كان التنويم المغناطيسي إجراء فاقد الشعبية بشدة حينما أعاد إحياءه تشاركو كطريقة في معالجة الهستيريا في أعوام العقد الذي يبدأ بعام 1880. وقبل قرن من الزمان أثار طبيب ألماني يدعى فرانز أنطون مسمر (Franz Anton Mesmer) شعبية لنظرية «المغناطيسية الحيوانية» والتي مفادها أن سبب المرض يعود إلى سوء توزيع السيالة المغناطيسية في الجسم. يفترض في هذه السيالة أن تصل بين الإنسانية والأرض والنجوم. صنع مسمر جرات أسماها باكويتس (Baquets) ليجمع فيها السيالة من أجل أزهاره. بإمكان التنويم المغناطيسي أن يعيد توزيع هذه السيالة وأن يشفي المريض. كان مسمر يجلس أمام مريضة محدقاً مباشرة في عينيها ومحرراً يداه أمام وجهها وبعد ذلك يلمس الجزء من الجسم الذي تعرض للإصابة. يشعر كثير من المرضى بأحاسيس غريبة أو بالضعف عندما كان يلمسهم مسمر. كما ادعى الكثير الشفاء من المرض. أدخل مريدوا مسمر تحسينات على طريقته وأدخلوا مرضاهم في نوم مغناطيسي أو غشية. أثناء النوم المغناطيسي يستطيع المرضى أن يتذكروا حياتهم بشكل كامل كما يستطيعون أن يشخصوا عللهم. وعندما يستيقظون لا يتذكرون شيئاً مما جرى في غشيتهم. نشر مريدوا مسمر كتباً حول استحداث النوم المغناطيسي والشفاء من الأمراض.

على الرغم من أن حركة مسمر جذبت آلاف المريدين وانتشرت في أنحاء أوروبة ووصلت إلى الولايات المتحدة فقد اضمحلت بسبب غرابتها. يعُر الأطباء أي أهمية للمسمرية كطريقة جديدة في المعالجة وبينوا أن ليس لنظرية المغناطيسية الحيوانية أي أساس من الحقيقة.



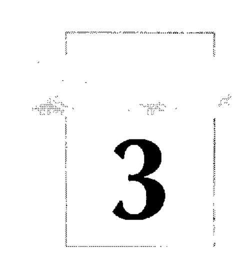
ومع نهاية القرن الثامن عشر انتشر استخدام التنويم المغناطيسي لمعالجة الأمراض في أنحاء أوروبا والولايات المتحدة. إلا أنه ما لبثت هذه الممارسة تتهاوى من عرشها أمام انتقادات لجان علمية متعددة لم تجد فيها أي فائدة طبية.

كان المنوِّمون المغناطيسيون يشيرون إلى حالات الشفاء غير العادية التي تحصل أحياناً على أنها البرهان على صحة طريقتهم بدلاً من تحليل ما حصل لبقية المرضى الذين من الممكن أن يكونوا قد خضعوا إلى عشرات الجلسات التنويمية الموسعة غير الناجحة. وعلاوة على ذلك، كان التنويم المغناطيسي، لعامة الناس غير المتعلمين وجعلهم يشخصون لأنفسهم أمراضهم ويصفون لها العلاج، ممارسة طبية غير قانونية. وفي عام 1784 قامت لجنة ملكية فرنسية بالتحقيق في علاجات مسمر فوجدت أنها غير فعالة على الإطلاق وربما كانت الضربة الأخيرة لمصداقية مسمر على يد كثير من المنوِّمين المغناطيسيين المسرحيين الذين عرضوا المسمرية كشيء للتسلية أكثر منه للمعالجة الطبية. ومع رواج مذهب العقلانية في العالم خسرت المسمرية بريقها وقبيل العقد الذي يبدأ بعام 1850 ذهب نورها واضمحلت إلى حد كبير.

على شعور الإنسان». إن احتواء الهستيريا على أعراض عضوية بفعل العمليات النفسية جعل فرويد يتساءل عن كيفية عمل الدماغ حتى استطاع أن يتسبب للجسم بهذا الحجم من الأضرار. وخلال الفترة التي قضاها في باريس، احتوت مناظرة حول ما إذا كانت الهستيريا مرض وراثي يحدث فقط للأشخاص الذين عندهم القابلية له أم أنه مرض مكتسب مثل مرض الزكام الشائع. كما يمكن طرح السؤال ذاته بالنسبة إلى القابلية لتقبل الإيحاء. لم يكن فرويد متأكداً من صحة رأيه وبقيت هذه المسألة تشغل باله لسنوات طويلة. اعتقد تشاركو أن الميل نحو الهستيريا أمر وراثي ويتم تفعيله بواسطة الرضة النفسية التي تصدم الجهاز العصبي. قادت هذه الفكرة فرويد لأن يسأل عدداً من الأسئلة تتعلق بالعلاقة بين الحالات النفسية والحالات العضوية. كيف تتحول الصدمة النفسية إلى مرض عضوي؟ كيف يستطيع المرء أن يصبح مريضاً بفعل الذاكرة؟ كيف تنشأ الهستيريا؟

بعد العودة إلى ڤيينا، بدأ فرويد بالتفكير في العمليات اللاشعورية وأثر الخبرة العقلية أو النفسية على الأعراض العضوية وتفاعل الرغبات الجنسية والهستيريا والحياة النفسية. استمر في التفكير بهذه القضايا في الأعوام الخمس القادمة. بعد أن غادر فرويد مختبر تشاركو لم يعد يجر أي عمل تجريبي. لقد كانت تجربة فرويد الشخصية في مختبر تشاركو إيذاناً لابتداء حياته المهنية كممارس للعمل العيادي.





المحادثات

انتظر فرويد عودته إلى ڤيينا بفارغ الصبر في شهر نيسان من عام 1886 لكي يبتعد عن المختبر. وكان قد أمضى أعواماً طويلة في دراسة أعضاء حيوان الإنقليس وكلوريد الذهب والكوكائين والنزف الدماغي وأدمغة الأطفال. بعد دخوله في عالم تشاركو كتب فرويد أوراق بحث طبية عن الدراسات السريرية فقط سابراً حالات من الأمراض العصبية من مثل الشلل الدماغي والحُبسة الكلامية.

بعد قضاء شهر من دراسة أمراض الطفولة في برلين، عاد فرويد إلى ڤيينا ليتسلم وظيفة مدير لشعبة الأمراض العصبية في عيادة خاصة للأطفال. أصبح فرويد خبيراً في شؤون الشلل الدماغي عند الأطفال، فنشر عدداً من

أوراق البحث عن هذا الموضوع حتى عام 1897. استقال من مشفى ڤيينا العامة، التي تدرب فيها، لكي يبدأ بمزاولة عمله الخاص (وليحصل على قدر أكبر من المال أيضاً). وفي يوم الأحد الموافق لعيد الفصح من عام 1886 نَشر في جريدة إعلاناً قال فيه «الدكتور سيغموند فرويد، مدرس الأمراض العصبية في الجامعة يعود من جولته الدراسية في باريس وبرلين ويستقبل الاستشارات في راثوستراس رقم 7 من الساعة 1 إلى الساعة 2:30».

وفي الوقت الذي كان فيه فرويد مؤهلاً بشكل واضح لأن يمارس تشخيص وعلاج الاضطرابات العصبية عند الأطفال كان يجازف بالإعلان عن افتتاح عيادته الخاصة. إذ كان فرويد غير معروف ويعمل للمرة الأولى خارج المشفى. أصبح مرضاه البالغون الآن معتمدين عليه اعتماداً كلياً، إذ لم يعد هناك تجمع للأطباء يراجعون ويناقشون قراراته وأحكامه الطبية خارج عيادة الأطفال. لذلك كان فرويد متوتراً ومشككاً في قدراته. في البداية كان صديقه جوزف بروير Josef Breur وأستاذه القديم هرمان نوثناغل Herman Nothnagl يحيلان مرضاهما إليه. إلا أن العمل لم يكن مستقراً في بادئ الأمر. وفي أحد المرات فكر فرويد بالهجرة إلى أميريكا لكنه تخلى عن هذه الفكرة حينما أعلمه صديق له أن العمل الوحيد الذي يمكن أن يجده في نيويورك هو خدمة زبائن المطاعم. وجد فرويد سريعاً سبباً وجيهاً للبقاء في ڤيينا. إذ قام أقرباء فرويد المتعاطفون معه وأصدقاءه الأثرياء بالتبرع

بالمال الذي يعين فرويد على التزوج أخيراً من مارثا بعد خطبة دامت أكثر من أربع سنوات.

حصل الزفاف في 14 أيلول من عام 1886. وبعد مضي أكثر من عام بقليل أنجبت مارثا ابنة فرويد الأولى. تمت تسمية الطفلة على اسم زوجة بروير ماتيلدا Matilda.

لم يتم اختيار اسم ماتيلدا بسهولة. ففي عام 1886 كان جوزف بروير واحداً من أصدقاء فرويد المقربين جداً ومن المتعاونين معه علمياً. بدأ بروير حياته المهنية كباحث في علم الأعصاب وقبل أن يبدأ بمزاولة الطب توصل إلى اكتشافات هامة تتعلق بتنظيم التنفس ودور الأذن الداخلية في الحفاظ على التوازن. تقابل بروير وفرويد عندما كانا يعملان معاً في مختبر بروك. وكانت بينهما قواسم مشتركة كثيرة، فبالإضافة إلى اهتمامهما المشترك في علم الأعصاب انجذب فرويد إلى بروير من خلال اهتماماته الثقافية والأدبية. كان بروير يقوم بمراسلة معلم فرويد المفضل فرانز برينتانو وكان يصاحب الشعراء والكتّاب والملحنين والموسيقيين. لقد كان محبوباً بين زملائه بسبب عدم تكلفه واهتمامه الوجداني بالفلسفة والفنون وتحليه بالكرم. كثيراً ما كان المال يعوز فرويد فيقوم بروير بإقراضه المال. وجد فرويد في بروير مرة أخرى صورة الأب وليس مجرد شخصية تسلطية مثل بروك.

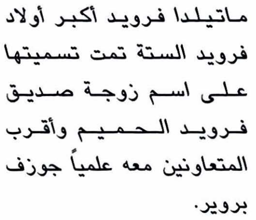
بل إن بروير هو مجرد أب بالنسبة لفرويد ليس إلا. ففي الأعوام الباكرة من صداقتهما، شجع بروير فرويد على البحث وأحال إليه المرضى. وقبيل منتصف العقد الذي يبدأ بعام 1880 كان بروير مثل فرويد يكرس كامل وقته للممارسة العيادية.

لكنه خلافاً لفرويد اشتهر بموهبته في العلاج فعالج بعضاً من أكثر العائلات ثراء في ڤيينا بالإضافة إلى الفقراء. كما عالج بروير واحدة من أكثر مرضى فرويد شهرة وهي أنًا أو Anna O. عندما لم يأخذ فرويد وقتاً مستقطعاً من أجل الخدمة العسكرية أو من أجل شهر العسل كان يعمل بالإنابة عن تشاركو.

على الصعيد العام كان يخدم أستاذه العظيم عن طريق إلقائه محاضرة على جمعية الأطباء 15 تشرين الأول من عام 1886. عمد فرويد إلى تقديم فكرة حدوث الهستيريا عند الذكور للجمعية الطبية في ڤيينا وناقش أنواع الهستيريا.

من سوء الطالع أن كان أهالي مدينة ڤيينا يعلمون عن هستيريا الذكور. أفاد أحد الأطباء الحاضرين بأنه قد نشر دراسات عن هستيريا الذكور قبل 16 عاماً. كما عارض العديد من الأساتذة الجامعيين الحاضرين بغضب ما جاء به فرويد من معرفة معروفة عوضاً عن أن يأتي ببحث جديد. استقبل فرويد هذا الإعراض بتأثر عميق، وشعر أنه اضُطهد لمناقشته هستيريا الذكور، لم يكن هناك دليل





ماتيلدا فرويد أكبر أولاد فرويد الستة تمت تسميتها على اسم زوجة صديق فرويد الحميم وأقرب المتعاونين معه علمياً جوزف بروير.

على أن جمعية الأطباء كانت قاسية مع فرويد أكثر من اللازم أو أنهم رفضوا كل شيء تحدث عنه بعيداً عن حقيقة أن بحثه لم يكن أصيلاً. إلا أن فرويد الذي لا يزال يشعر بالندم بسبب تجربته المؤلمة مع الكوكائين، شعر أنه كان معزولاً ومعرضاً للهجوم. وبعد شهر من محاضرته الأولى التي ألقاها على جمعية الأطباء ألقى محاضرة ثانية مستعرضاً حالة من حالات هستيريا الذكور

وبعدها لم يعد إلى الجمعية ثانية طوال مدة 25 عاماً متبقية من إقامته في ڤيينا، وفي الوقت الذي كان فيه فرويد يناضل من أجل الحصول على التقدير، كان يستقبل المرضى.

وكثيراً ما كان يعاني هؤلاء المرضى من الهستيريا ولم يبدي هؤلاء المرضى نوبات اكتسبوها عن طريق التعلم أو يشكوا من شكل نصفي، كما كان يفعل مرضى تشاركو الهستيريين. لم يدخل هؤلاء المشافي وكانت أعراضهم أخف وأخفى مما كان يبديه مرضى تشاركو. فمن بين الأعراض التي كان يصرح عنها هؤلاء المرضى: آلام غريبة، وغثيان، وعرَّات في الوجه، وشلل في أحد الأطراف، واستشعار الروائح الكريهة، وهجمات من الدُوَّام.

وهؤلاء المرضى بالتعريف لم يكن عندهم سبباً عضوياً للضائقة أو الاضطرابات النفسية التي يعانون منها لكنهم أمام حقائق معروفة عن دورة المرض وبنية الجسم. ومثل فرويد مثل أطباء أمراض عصبية آخرين في القرن التاسع عشر استخدموا كثيراً من الطرائق لمعالجة الهستيريا. فكان يصف لمرضاه المساج والصدمة الكهربائية والاستحمام وعلاج الراحة الذي ابتكره وير ميتشل Weir Mitchell الذي يتطلب استراحة في السرير بمعزل عن الآخرين وحمية غذائية يتم تناولها بواسطة ملعقة وتتألف من طعام يدخل في مكوناته اللبن بالإضافة إلى مساج وصدمة

الطب الفعال

عندما بدأ فرويد مزاولة الطب، استخدم علاجات بدت غريبة بالنسبة إلى الأطباء المعاصرين. إحدى العلاجات كانت المعالجة الفارادية Faradization وهي نوع من العلاج الكهربائي. يخلع المرضى ملابسهم ويجلسون على كرسي ويضعون أقدامهم الحافية في حوض ماء موصول بأحد أقطاب سلك مغناطيسي. يمسك الطبيب بلاحب يسمح له بتمرير تيار كهربائي عبر جسم المريضة وعندما تتعرض المريضة للصدمة الكهربائية تتقلص عضلاتها محدثة ارتجاجاً وغثياناً ودُواماً وضعفاً. كما ستعاني من حروق كهربائية تترك علامات حمراء. هناك علاج حظي هو الآخر بالشعبية هو العلاج المائي Hydrotherapy يتم رش المرضى بدفعات قوية من الماء البارد أو بلف المرضى بشراشف مبللة وباردة ثم يتم تدليكهم حتى يشعروا بالدفء. يفترض أن تكون لقوة دفع الماء، وللتدليك أثر مهم على التمتع بالصحة.

معلم فرويد جين مارتن تشاركو صمم هذه القبعة الاهتزازية التي تتحرك بمحرك كهربائي في محاولة لعلاج بعض الأمراض العصبية.

كهربائية خفيفة. ومع استمراره في مزاولة العلاج أخذت تتشكل قناعة بأن التنويم المغناطيسي هو أفضل علاج ممكن لهؤلاء المرضى.

بدأ فرويد باستخدام التنويم المغناطيسي في معالجة الهستيريا في الوقت الذي كان ما يزال مفتوناً بتشاركو. وكان قد رأى تشاركو يسيطر على المرضى الهستيريين من خلال الإيحاء التنويمي لهم وإخبارهم ما الذي يتوجب عليهم أن يفعلوه وهم في حالة الغشية. ومع ذلك لم يستخدم تشاركو التنويم المغناطيسي مطلقاً لعلاج الأعراض الهستيرية. وحصل ذات مرة أن جاء زائر إلى مشفى سالبترير سائلاً أحد مساعدي تشاركو عن فائدة التنويم المغناطيسي إن لم تكن لتستخدم في معالجة المرضى. أجاب المساعد قائلاً «ينبغي اعتبار المرأة الهستيرية المنومة مغناطيسياً على أنها (ضفدع نفسي) فالذي قدمه الضفدع لعلم الأحياء يمكن للمرأة الهستيرية أن تقدمه لعلم النفس». وبهذا المنظار كان التنويم المغناطيسي ببساطة بمثابة طريقة لعرض عينات على الدراسة. كانت التقانة التي استخدمها تشاركو في التنويم المغناطيسي سهلة.

فقد كان يحدق في عيني مرضاه فيدخلون في حالة الغشية. حاول فرويد أن يستخدم هذه التقانة لكن الشكوك بدأت تساوره في عامه الأول من المزاولة. استعصى بعض مرضاه على تقبل التنويم والبعض الآخر لم يستجب

للإيحاء على الإطلاق. وصف فرويد طريقته في تنويم المرضى في كتابه «حالة علاج ناجعة باستخدام التنويم المغناطيسي». الذي تم نشره في جزئين في عامي 1892 و1893. لم تكن مريضته قادرة على أن ترضع طفلها الثاني من ثديها.

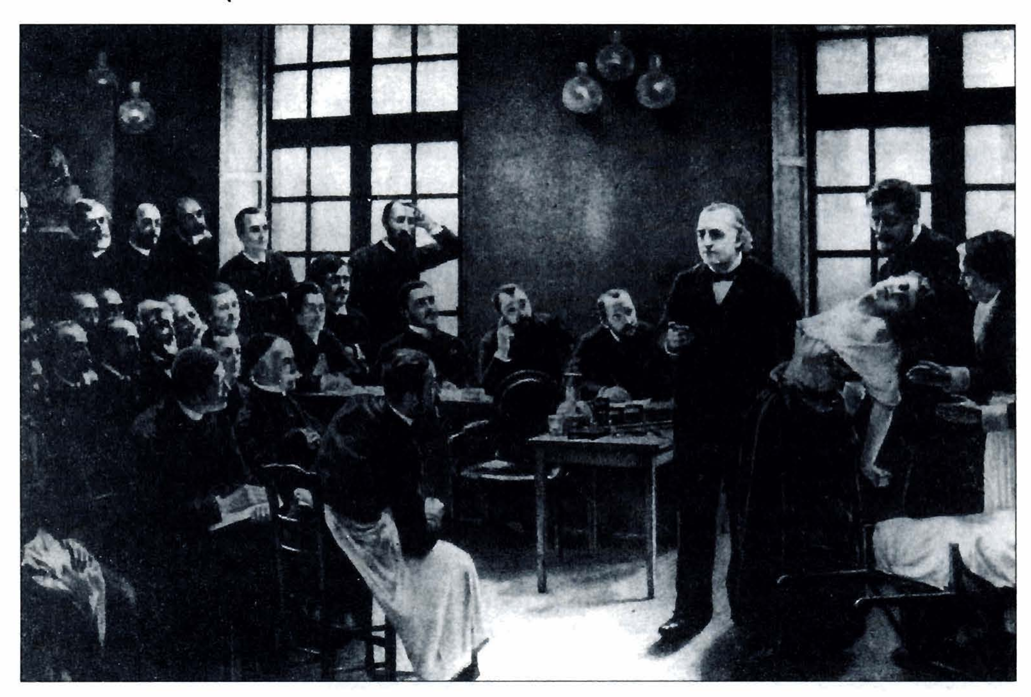
«حاولت حالاً أن أحرض عملية التنويم عن طريق تثبيت العين وفي ذات الوقت إعطاء إيحاءات سريعة عن أعراض النوم. بعد ثلاث دقائق كان المريض مستلقياً على ظهره وعليه تعابير السكينة التي تظهر عند شخص غارق في نوم عميق... استخدمت الإيحاء لمناقضة جميع مخاوفها والمشاعر التي تستند إليها هذه المخاوف «لا تخافي! ستكوني مرضعة ممتازة وسيترعرع الرضيع» استمرت المريضة في النوم بينما تركتها لبضع دقائق، وحينما أيقظتها بدت فاقدة لذاكرة ما قد حدث. قبل أن أغادر المنزل كان عليَّ أن أناقض تعليقاً يثير القلق أبداه زوج المريضة حول تأثير التنويم على أعصاب المرأة التي يمكن أن تتضرر كلية من جراء التنويم».

كان التنويم المغناطيسي علاجاً مثيراً للجدل. لقد أنقذ تشاركو هذه التقانة من الاضمحلال والسمعة الرديئة، لكن الأطباء استمروا في إبداء حذرهم الصريح تجاه هذه الطريقة غير الطبية. لم يُقم تشاركو ولا أي باحث آخر الدليل العضوي أو البيولوجي على ما هو الشيء الذي يجعل التنويم المغناطيسي عملية فعالة. اعترض أحد أساتذة فرويد السابقين ويدعى ثيودور مينيرت Theodor Meynert على التنويم المغناطيسي لكونه يجعل المرضى

مجرد حيوانات لا حيلة لها وعلى العلاجات التنويمية لكونها مزيفة أو محض هراء. كانت خشيته هي أن كل ما يفعله التنويم هو فقط جعل حالة المرضى الهستيريين أسوأ مما كانت عليه من قبل وهذا احتمال أثار القلق عند تشاركو أيضاً. ولعل أصدق نبوءة قالها مينيرت بحق التنويم هي أنه يتم عن طريق إيقاف عمل جزء من الدماغ مسؤول عن «النشاط اللحائي العالي» أي التفكير الواعي أو الشعوري تاركاً ما تحت اللحاء، وهي منطقة يعتقد أنها مصدر الرغبات الحيوانية، لتتحكم بمفردها في السلوك. ووفقاً لوجهة نظر مينيرت فإن هذا الإيقاف لعمل جزء من الدماغ سيطلق العنان للدوافع الجنسية التابعة لمنطقة ما تحت اللحاء هو فكرة من الواضح أنها تثير الرعب. اعتقد كل من تشاركو ومينيرت أن التنويم المغناطيسي يعمل بواسطة طاقة حيوية وأن عملية التنويم المغناطيسي تحدث تغيراً فيزيائياً في جزء من أجزاء الجسم. لم تحظ هذه النظرة بموافقة جميع الباحثين. ففي عام 1887 باشر فرويد بترجمة كتاب عن «الإيحاء» للطبيب الفرنسي هيبولايت بيرنهايم Hippolyte Bernheim، وهو خبير مشهود له في التنويم المغناطيسي. ظن بيرنهايم أن الآثار الغريبة للتنويم المغناطيسي ناجمة عن الإيحاء النفسي. كما ادعى بيرنهايم على نحو غير متوقع أن القابلية للإيحاء مقتصرة على الأفراد الهستيريين. ووفقاً لما يعتقده بيرنهايم فإن كل فرد قابل للتنويم حتى وإن لم يكن لديه ميل موروث إلى المرض الذي اعتقد الأطباء حينئذ أنه متوافر لدى المرضى الهستيريين.

كان فرويد ميالاً إلى تفسير يشتمل على كل من العمليات العضوية والنفسية. ورأى أن النشاط النفسي أو العقلي يتوقف على الحالات الفيزيولوجية لكنه ليس مطابقاً لهم. هذه فكرة ذكية وضرورية لفهم نظريات فرويد المتأخرة عن الهستيريا والأمراض النفسية الأخرى. فكر بشخص تم إيقاظه ليلاً بفعل ضجة عالية، سيشعر ذلك الشخص بالذعر وسيخفق قلبه ويتصبب عرقاً ويجلس فجأة على سريره. إلا أن ردة الفعل النفسية عند هذا الشخص تتوقف على خبراته السابقة. فالشخص الذي يعيش في حي تكثر فيه الجرائم والمظاهر المسلحة من الممكن أن يصبح مرتاعاً ومشلولاً من الخوف. أما

تظهر هذه الصورة شاركوت يقوم بإظهار قوة التنويم المغناطيسي لحشد كبير من المعجبين. لقد علّق فرويد نسخة من هذه الصورة في مكتبه.



الشخص الذي لا يحب أن يوقظه أحد من نومه أثناء الليل من الممكن أن يصبح غاضباً وأن ينهض من سريره ليبحث عن مصدر الإزعاج.

في هاتين الحالتين نجد أن المثير الفيزيائي وردة فعل الجسم الأولية كانا متماثلين لكن الحالة الانفعالية التي تلت ذلك كانت مختلفة جداً باختصار عندما اهتم فرويد بالتنويم المغناطيسي أو الإيحائي عرف أنه يتعامل مع مشكلة الجسم والعقل. وَكَشخص متخصص في علم الأعصاب كانت تجابهه دائماً أسئلة عن أين ينتهي الجسد وأين يبدأ العقل وكيف يؤثر التفكير على الجسد ومن أين تأتي الأفكار في المقام الأول.

في عام 1880 كان جوزف بروير صديق فرويد قد بدأ برؤية مريضة تدعى أنّا أو. Anna O. كان عمر هذه المرأة الشابة التي كان اسمها الحقيقي بيرثا بابينهايم Bertha Pappenheim 21 عاماً حينما أصابها المرض. تنتمي هذه الشابة إلى أسرة يهودية ثرية وتتصف بالذكاء والثقافة وتتحدث اللغة الإنكليزية بطلاقة وتقرأ الأدب الفرنسي والإيطالي. ومع ذلك كتب عنها بروير فقال إنها «عاشت حياة رتيبة مقتصرة على أسرتها».

عندما ظهرت الأعراض عندها كانت في ذلك الوقت قد أمضت عدة شهور تعتني بأبيها المريض. أتت أنّا أو. إلى بروير تشتكي من صداع وخدر وشلل ومشكلات بصرية متنوعة. وفي العام التالي بدأت تشتكي أيضاً من

الهلوسات التي رأت فيها ثعابين وهياكل عظيمة كما فقدت قدرتها على التحدث بالألمانية (لكنها استمرت بالتواصل مع الآخرين بالإنكليزية والفرنسية). بدت في بعض الأحيان تتنقل بين شخصيتين الأولى شخصية حزينة لكنها طبيعية في مجالات الحياة الأخرى. والثانية شخصية قلقة ووقحة ومائلة إلى الهلوسة. أصبحت هاتان الشخصيتان أكثر تحيزاً مع مرور الوقت. وقبيل شهر كانون الأول من عام 1881، اكتشف بروير أن باستطاعته أن يجعل أنّا أو تتحول إلى شخصية مريضة وذلك عن طريق عرض برتقالة عليها (حيث إن البرتقال هو كل ما كانت تأكله فعلياً أثناء الفترة الأولى من مرضها). بدت هذه الشخصية الثانية وكأنها تعيش أبكر بعام واحد تماماً من الشخصية السليمة التي تأكد بروير منها عن طريق مراجعة مفكرة والدة أنّا عن مرض ابنتها. وكان واضحاً أن أنّا لم تكن هستيرية من النمط المعتاد، فقد استجابت للتنويم ولكن ليس بالطريقة العادية. في كل مساء تدخل أنّا أو في حالة التنويم بشكل تلقائي وتخبر بروير أشياء عن هلوساتها لا تستطيع تذكرها في أوقات أخرى. وكان تصريحها بما عندها من خواطر بائسة يشعرها بالارتياح ويبعد عنها الأعراض لتلك الليلة. استدعت أنّا من ذاكرتها هذا العلاج الكلامي وأعطت مثالاً عليه. في أحد أيام فصل الربيع من عام 1882 توقفت أنّا أو عن تناول السوائل فأصبحت تعاني جفافاً متزايداً إلى أنها في إحدى الليالي وبينما كانت تحت تأثير التنويم أخبرت بروير أنها

شعرت بالقرف حينما شاهدت ماء كلب صغير خارج الكوب. ولما أخبرت بروير بهذه القصة وجدت نفسها قادرة على الشرب من جديد.

وباتباع الطريقة ذاتها أخذ بروير يساعد أنّا أو على التخلص من جميع أعراضها عن طريق جعلها تتذكر كيف بدأ كل عرض من الأعراض.

ظهرت معظم الأعراض عندما كان عليها أن تقمع عاطفة ما من عواطفها. لقد كان علاجاً مديداً وشاقاً، فقد أحصت أنّا 303 مثالاً مختلفاً من الأعراض التي تخص وظيفة السمع وحدها. لكن مجرد عمل بسيط وهو التعرف على مشاعرها بدا أنه علاج لها. فيما لو تذكرتهم بترتيب زمني معكوس على نحو دقيق. ومع ذلك فإن كل ما قد تذكرته حصل وهي في حالة تنويم ذاتي. فقد حدثت عملية المعالجة حينما كانت أنّا أو في حالة من الوعي أو الشعور الذي طرأ عليه تعديل. وتجدر الإشارة هنا إلى أن أنّا أو هي التي أوحت أولاً هذا العلاج الذي أسمته بـ«العلاج الكلامي» وليس بروير. لقد كان دور بروير ببساطة هو تشجيع أنّا على السير قدماً في الوجهة التي اختارتها. ولعل أنّا أو قد استوحت على الأغلب الفكرة من كتاب ذائع الصيت حول التنفيس أو التطهر الانفعالي Catharsis الذي تم نشره في عام 1880. مؤلف الكتاب هو يعقوب بيرنيز Jacob Bernays وهو عم مارثا فرويد. بالإضافة إلى ذلك هناك مفهوم أرسطوطاليس عن

التنفيس المسرحي - إذ أكد على أن المسرحيات المأسوية تسمح للمشاهدين أن يخرجوا عواطفهم العنيفة بسلام - الذي كان رائجاً جداً في صالونات ڤيينا في ذلك الوقت. لقد كانت أنّا أو تصطنع مسرحية خاصة بها لتخرج عواطفها الدفينة. فاختارت كلاً من طريقة العلاج الكلامي وتوقيت معالجتها الذي بدأته بعد حوالي عام من وفاة أبيها أخيراً في ربيع عام 1881. وهي في ذلك شبيهة بمرضى مسمر المنومين الذين كانوا يشخصون اضطراباتهم بأنفسهم. توصل أخيراً كل من أنّا أو وبروير إلى وضع قائمة تحتوي على جميع المصادر الهائلة لمتاعبها. تماثلت للشفاء مؤقتاً. إلا أنه خلال ثلاثة أشهر من جلستها الأخيرة مع بروير، تم إدخالها إلى مصح وعادت مرة أخرى غير قادرة على التحدث بالألمانية وتعاني من ثغرات في ذاكرتها ومن صداع متكرر وشديد. بعد مرور خمس سنوات بقيت تعاني أحياناً من هلوسات.



اشتكت بيرثا بابينهايم من الصداع والشلل ومتاعب صحية أخرى. ذهبت بيرثا لرؤية جوزف بروير صديق فرويد. وسعياً من بروير للحفاظ على سرية المريضة كان يشير إليها في حديثه مع أطباء آخرين على أنها أنّا أو. وتحت إشراف بروير كانت أنّا أو أول مريضة تخضع للتحليل النفسي.

أضحى علاج أنّا أو مهماً للغاية بالنسبة لنظريات فرويد عن المرض العقلي. فقد اعتقد (كما عبر عنه في ورقة بحث عن الهستيريا التي كتبها فيما بعد مع بروير).

إن «الأشخاص الهستيريين يعانون بشكل رئيسي من

تذكر الأحداث الماضية». فإن أمكن استدعاء الذكريات المنغصة فإن جميعهم سيصبحون بحالة جيدة وإذا استطاع المريض أن يجد مصدر مشكلته، كما كان يعتقد، فإن مشكلته سوف تزول.

وبعبارة أخرى الحقيقة كفيلة بإطلاق سراحك. ولسوء الحظ لم يستطع جميع المرضى أن يتذكروا الحقيقة بنفس السهولة التي تذكرت بها أنَّا أو.

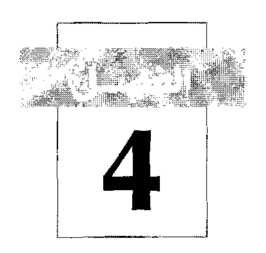
تابعت أنَّا أو. أو بيرثا بابينهايم طريقها لتصبح فاعلة خير وناشطة اجتماعية وكاتبة. فأدارت داراً للأيتام وأسست جمعية للنساء اليهوديات وسافرت إلى منطقة الشرق الأدنى وأوروبا الشرقية لتساعد اليتامى وتستقصي عن ظاهرة البغاء المفروض. في عام 1954 أصدرت ألمانيا الغربية طابعاً بريدياً تشريفاً لها. ولعل أعظم مساهمة قدمته إلى العالم هو أنها طلبت من بروير أن يكون طبيباً لها ومؤتمن عليها. أعطى بروير عنواناً لعمليته العلاجية هو «الطريقة التنفيسية».

وفي الوقت الذي كان فيه بروير يصغي إلى تداعيات أنَّا أو كان يستشير أيضاً صديقه الحميم سيغموند فرويد أثناء تناول الغداء. أثارت هذه الحالة فرويد، وحاول أن يخبر تشاركو عن أنَّا أو. لكن تشاركو لم يكن مهتماً بالحالات الموجودة خارج مشفاه. كان فرويد متحمساً لنشر وصف عن أعراض أنَّا أو. وعلاجها لكن بروير كان رافضاً ولم يتم نشر دراسة الحالة حتى عام 1895. شعر

بروير بأن تلك الحالة لم تكن حالة هستيريا من النمط المعتاد. وبسرعة أصبح بروير وفرويد مختلفين بشأن معنى أعراض أنّا أو ومعالجة بروير لها. فقد رأى فرويد عناصر جنسية في حالة أنّا لم يستطع بروير أن يؤيدها. وقبيل منتصف العقد الذي يبدأ بعام 1880 احتاج فرويد إلى صديق جديد وشخص مؤتمن، شخص يرغب في اكتشاف العقل بعمق وعلى استعداد لأن يصغي بصبر إلى أشد أفكار فرويد غرابة وابتكاراً، لقد وجد فرويد أفضل صاحب له في شخص صديق بروير ويلهالم فلييس Wilhelm Fliess.



فرويد على الجانب الأيمن من الصورة مع صديقه وزميله ويلهالم فلييس. يشترك الاثنان في الاهتمام بنظريات ثورية حول الجنسية البشرية.



التفسيرات

ويلهالم فلييس، الطبيب المتخصص بالأذن والأنف والحنجرة من برلين، كان رجلاً ذو آراء متشددة وغريبة. تبدو اليوم معظم أفكاره وكأنها محض افتراءات، لكنها في أواخر القرن التاسع عشر لم تكن أكثر ولا أقل مدعاة للارتياب من نظريات فرويد. إذ كان فرويد قبل كل شيء مفتوناً بموضوع مريب علمياً هو التخاطر (التواصل النفسي) ونشر عنه ثلاث أوراق بحث خلال فترة حياته.

اشتهر فلييس بتقديمه لثلاث نظريات رئيسة هي النظرية الجنسية الثنائية عند الإنسان human biexuality والنظرية الدورية عند الإنسان human periodicity والنظرية الأنفية التناسلية the nasal-genital theory. وفقاً لما جاء به فلييس يحتوي الإنسان على خصائص عضوية ونفسية من كلا

الجنسين، منذ بداية الحمل في الرحم. وفي نظره يفترض أن يكون لكل جنس دورة أو دورية جنسية متميزة ومستقلة عن الجنس الآخر. هذه الدورية الجنسية كما يسميها فلييس لا تتحكم فقط بالوظائف الجنسية من مثل الإباضة والإحاضة وإنما تتحكم أيضاً بظواهر تشبه صداع الشقيقة ونزيف الأنف. فالدورة عند النساء كما يراها فلييس تدوم 28 يوماً. وأخيراً يعتقد فلييس أن جميع البشر يشتركون فيما بينهم بوجود صلة بين أماكن معينة في الأفق والأعضاء التناسلية.

تتجلى هذه الصلة على سبيل المثال عندما تؤثر إصابة ما لغشاء الأنف على منطقة تناسلية معينة. لقد كان لكل نظرية من هذه النظريات أساس من الحقائق العلمية الثابتة كما كان لها نقاط ضعف. إذ يبدي كثير من الحيوانات بما في ذلك البشر خصائص من الأعضاء التناسلية عند الجنسين أثناء فترة النمو في الرحم. وكان فلييس على علم أيضاً ببعض الحيوانات القشرية (وهي فئة من الحيوانات اللافقارية التي تضم القريدس والسراطين) والتي تغير جنسها أثناء دورة حياتها، كما كان على إطلاع بحالة شهيرة لامرأة يبدو أنها غيرت جنسها وهي في أوائل الثلاثينيات من عمرها، كما أن هناك أوجه تشابه متعددة متفق عليها بين الأنف والأعضاء التناسلية. على سبيل المثال تتورم بعض الأنسجة الأنفية عند المرأة خلال فترة الحيض. كما يعاني بعض الناس من الرعف أو هجمات العطاس عندما يشعرون بالإثارة الجنسية الشديدة.

على أية حال يعتقد فلييس بوجود صلة مباشرة وغامضة تقريباً بين الأنف والأعضاء التناسلية. دفع إيمان فلييس بأفكاره فرويد فيما بعد إلى ارتكاب خطأ فادح في معالجته لأحد مرضاه.

على نحو مماثل كان لدى فلييس طرائق معقدة ومثيرة للاهتمام لاشتقاق الدورتان البشريتان 28 و23 يوماً، وذلك بالاعتماد على توقيت الولادة والحيض ونمو الأجنة البشرية ومعدلات الإجهاض. مرة أخرى للتأكيد على أن تلك الفكرة لم تكن غريبة جداً في ذلك الوقت. إذ حاول العشرات من العلماء البحث عن مفتاح رياضي للحياة، من خلال اكتشاف الفروق في فترات الحمل (وهي الفترة الواقعة بين ابتداء الحمل والولادة أو التفقيس) بين الأنواع المختلفة والفروق في فترات الأمراض المختلفة وظواهر أخرى.

من سوء الطالع بالنسبة لفرويد ووفقاً للكاتب الصحفي الأمريكي في الشؤون العلمية مارتن غاردنر Martin Gardner أنه منذ اختيار فلييس للرقمين 23 و28 اللذين لا يشتركان في أي عامل مشترك واستخدامه الصيغة س‌س 23 (+ أو −) ع‌س 28 لتشكيل أي عدد يريده. قام فلييس بالفعل بعمل ذلك فكان يحسب أي شيء ابتداء من مدى الحياة إلى موعد ابتداء فترة الحيض إلى حساب تواريخ الوفاة. وإلى أن بلغ فرويد السنة الثانية والخمسين على تاريخ مولده كان يعتقد اعتقاداً ترتعد له فرائصه أنه سوف يموت في عمر 51 سنة (23 + 28).

لقد واجه جميع اعتقادات فلييس الرئيسة الدحض العلمي لكنه حينما التقى فرويد مع فلييس لأول مرة بدت هذه الأفكار مثيرة للاهتمام وعظيمة. وكان فلييس قبل ذلك مهتماً بنفس المسائل التي شغلت فرويد عن مثل الحياة والموت والجنس.

لقد كان فلييس قارئاً جيداً في الطب والبحث في علم الأحياء وكان ذلك أحد الأسباب التي جعلته قادراً عل الدفاع بنجاح كبير عن نظرياته. اعتبره فرويد مثله الأعلى في المعرفة حينما تقابلا أول مرة، وكان حريصاً لأخذ النصيحة من صديقه في كل أعماله. بدأ كل من فرويد وفلييس بتبادل الرسائل فيما بينهما بعد لقائهما في عام 1887 بقليل. وفي الأعوام التي تبدأ بعام 1894 إلى عام 1900، مارس فلييس تأثيراً عميقاً على فرويد. بحث فرويد مع فلييس كل فكرة كان يقتنع بها عن طريق الرسائل والنقاشات التي كانت تستغرق اليوم بأكمله خلال العطلات المشتركة. كان فرويد يقول إلى فلييس «تقديرك لي هو كالرحيق والعطر الإلهي بالنسبة لي» «حينما أتحدث إليك» أردف قائلاً «وأرى أنك تفكر بشيء يتعلق بي، أبدأ بالتفكير بنفسي فعليا». (في منزل فرويد كان عمله «يتوقف عند الباب» كما جاء في قوله ولم يكن هناك دليل على أن مارثا فرويد قد ناقشت عمل زوجها معه).

كتب فرويد إلى فلييس عن مرضاه وعن نظرياته حول

الهستيريا والفن وعن نمو أطفاله وأمراضهم، وعن كل شيء كان يشغل عقله وقلبه. بقي فلييس لعدة سنوات الصديق المفضل عند فرويد.

في عام 1888 كان فرويد منشغلاً بمرضاه أكثر من انشغاله بفلييس إذ بدأ فرويد باستخدام تقانة التنفيس، التي تعود إلى أنَّا أو، في ممارسته الطبية، إلا أنه لم يستطع بعض المرضى أن يخضعوا للتنويم. في عام 1889 أحضر فرويد مريضة بدت أنها مرشح جيد للعلاج بالتنفيس لكي تزور هيبولايت بيرنهايم Hippolyte Bernheim الخبير في التنويم المغناطيسي في فرنسا، لأخذ النصيحة. هذه المريضة هي إمي ڤان إن Emmy Von N أو البارونة فاني موزر Baroness Fanny Moser كانت أرملة في متوسط العمر قد بدأ ظهور أعراض هستيرية عندها قبل 14 سنة عندما توفي عنها زوجها. عالجها فرويد لمدة 15 أسبوع إذ كانت تعاني من فقد الشهية ومن مرَّات تشنجية في وجهها وعنقها ومن تمتمة وهلوسات لثعابين تسعى وجرذان ميتة.

أظهر بيرنهايم إلى فرويد أنه بالإمكان جعل المرضى المنومين يتذكرون أشياء في حالة اليقظة التالية لحالة التنويم لم يستطيعوا أن يصفوها من قبل. عندما يستيقظ المريض يقوم بيرنهايم بِحَثِه على التذكر في الوقت الذي يشكل فيه ضغطاً على جبهة المريض بواسطة يده.

استنتج فرويد من ذلك أن جميع المرضى يعلمون

مصدر أعراضهم الهستيرية وحتى أولئك الذين يستعصون على التنويم. فالقضية هي انتزاع تلك الذكريات من هؤلاء المرضى من غير تنويم. استخدم فرويد تقانة الضغط لعدة سنوات بعد عودته إلى ڤيينا.

لكن تقانة الضغط لم تشف إيمي ڤان إن. وفي أحد الأيام حينما كان فرويد يستجوبها عن حادثة هامة كانت قد ذكرتها له، بدت إيمي ڤان إن. غاضبة وألحت على فرويد، كما يذكر فرويد في دراسات عن الهستيريا (كتبها مع بروير)، أن يتوقف عن «سؤالها من أين هذه أو تلك قد أتت بل أن يدعها تقول ما تريد قوله». ليّن فرويد موقفه وترك إيمي ڤان إن. تسترسل فيما أصبح فيما بعد أول مثال على تقانة أخرى للتحليل النفسي هي التداعي الحر free association. لم يسع فرويد أن يقاطعها في الكلام، وعوضاً عن ذلك جلس ليدع إيمي ڤان إن. تتكلم عما تشاء وتستغرق الوقت الذي تشاء.

وهناك مريضة أخرى إليزابيث ڤان آر .Elisabeth Von R كانت تتحدث لبعض الوقت وبعد ذلك تلوذ بالصمت. رفض فرويد تقبل فكرة عدم بقاء أي شيء في رأسها تتحدث عنه. وظن أن حالها كحال أنّا أو وهي أنها تعاني من نسيان البواعث أو الأسباب التي أدت إلى الأعراض التي تشعر بها. مارس فرويد ضغطاً على مريضته لكي تستمر في التحدث حتى حينما ظنت أنه لم يعد في ذهنها ما تتحدث عنه. استفادت كل من إيمي ڤان إن وإليزابيث



اتسمت معالجة فرويد للبارونة فاني موزر (التي كان يشير إليها فرويد بـ«إيمي ڤان إن») ببداية استخدام التداعي الحر - وهي ترك المريض يتحدث عن أي شيء يخطر على باله.

ڤان آر. من المعالجة لكن الأمر لم يكن واضحاً بالنسبة إلى فرويد حول سبب نجاح العلاج معهما. ففي الوقت الذي كان فرويد يعالج فيه إيمي ڤان إن، كان لا يزال يبحث عن السمات المشتركة بين الحالات الهستيرية وحالة التنويم المغناطيسي. كان فرويد وبروير مثل -

تشاركو مهتمين بالآلية التي تحصل فيها الهستيريا وهي الطريقة التي تتحول فيها المشكلات الانفعالية إلى أعراض جسمية.

في أواخر العقد الذي يبدأ بعام 1880 بدأ فرويد بتحسس مصدر الهستيريا إن لم يكن آليتها. فبدأ يعتقد أن سبب الهستيريا هو الكبت الجنسي sexual repression. وكان كل من تشاركو وبروير قد أوحيا إلى فرويد أن كل المشكلات الهستيرية تبدأ في (فراش الزوجية) كما بدأ فرويد ذاته بمشاهدة مظاهر ذات طبيعة جنسية في العلاج. حينما كان فرويد لا يزال يستخدم التنويم، ألقت امرأة، تم تنويمها بسهولة، بذراعيها حول عنق فرويد لحظة استيقاظها من حالة التنويم. نجا فرويد من هذه الإحاطة المحرجة عندما دخل الخادم، لكنه لم يعد إلى استخدام التنويم مع هذه المريضة.

كما رأى فرويد أيضاً إشارات موحية من مصدر الهستيريا في الجلسة الأخيرة التي عقدها بروير مع أنّا أو في عام 1882. وبعد أن تعاون بروير وأنّا على التخلص من آخر عرض من أعراضها غادر بروير منزلها وعاد في ذلك المساء ليجدها تتلوى ألماً من مغص حاد في بطنها وحينما سألها بروير ما الذي طرأ عليها أجابت «طفل الدكتور بروير قادم الآن!» كانت أنّا تعاني من حمل هستيري من غصات مشابهة لآلام المخاض. قام بروير المذهول لهول ما قد سمع بتنويمها والفرار من بيتها

وغادر ڤيينا في اليوم التالي ليذهب في إجازة مع زوجته.

لم يصدق فرويد ولا بروير في البداية أن أمراض أنَّا أو.، كان سببها الكبت الجنسي. ومع ذلك كشفت أعراضها عن شعورها بتوافر صلة جنسية بينها وبين طبيبها تماماً مثل مريضة فرويد التي أجرى عليها التنويم. وفي حالة أخرى حينما أجرى فرويد فحصاً طبياً على إليزابيث ڤان آر. أغمي عليها عندما ضغط على فخذها. استناداً إلى رواية فرويد فقد «أظهرت تعبيراً معيناً، يدل على اللذة أكثر من أن يدل على الألم فقد بكت وتورد وجهها وألقت برأسها إلى الخلف وأغلقت عينيها وانحنى جذعها نحو الخلف» كان فرويد وبروير يثيران الدوافع الجنسية عند مرضاهما الهستيريين.

نشر فرويد وبروير ورقة بحث قصيرة بعنوان «حول الآلية النفسية في الظواهر الهستيرية، محادثات تمهيدية»، في عام 1893، وكتاب دراسات عن الهستيريا في عام 1895، لكنهم ناقشوا معظم اكتشافاتهم قبل ذلك بعدة سنوات. في كل من الدراسات والمحادثات كشف فرويد وبروير النقاب عن نظرية جديدة للهستيريا تقوم على أسس نفسية.

«يعاني الأشخاص الهستيريون بشكل رئيسي من تذكر الخبرات الماضية» كما كتب كل من بروير وفرويد في «المحادثات». وفي منشوراتهما أقر فرويد وبروير أن الهستيريا هي نتيجة رضة نفسية وليست نتيجة إصابة

عضوية. ومع ذلك ادَّعوا وجود قوة أو طاقة من نوع ما تحولت أثناء دورة الهستيريا. اعتقد فرويد وبروير أن هذه الطاقة تشبه الكهرباء.

يحاول الدماغ البشري كما جاء في كتاباتهما أن يحافظ على حالة ثابتة من الطاقة المنخفضة. وما الألم والضيق إلا نتيجة لتزايد في هذه الطاقة والتخلص منها يؤدي إلى الشعور بالسعادة. ومع مرور الزمن أخذ فرويد تدريجياً بتشكيل هذه الأفكار على شكل نظرية عامة في العصابات أو الأمراض النفسية التي تبدو أنها تحتوي على القلق.

يمكن تلخيص نظرية فرويد وبروير عن تشكل الهستيريا كما يلي: أثناء فترة الرضى أو الرضح يتكون قسط كبير من الطاقة النفسية، وبطريقة ما يغيب الزمن عن الشعور سواء أكان المريض في حالة تنويم ذاتي أو كان الحدث مؤلماً ألماً شديداً يفوق قدرة المريض على الاحتفاظ به في الشعور. ومع ذلك تبقى الطاقة المتجمعة بفعل الرضى في الجسم. ومع ابتعاد الرضى عن الشعور تنصب الطاقة على الجسم مسببة الأعراض العضوية. حينما يتم تنويم المريض في العيادة فإن باستطاعته أن يتذكر الرضى وأن يتعاطى مع الأعراض الهستيرية وذلك عن طريق تفريغ شحنات طاقة الرضى على شكل كلمات يقولها في حضرة الطبيب.

لم يوضح فرويد بالتحديد ماهية هذه الطاقة. ولم يكن ذلك مزاولة طبية غير شائعة في حينها، فقد كتب كثير من

العلماء الآخرين عن كيفية تأثير المثيرات الفيزيائية على الإحساس والمحاكمة عند الإنسان (وهو موضوع كان يدعى بالفيزياء النفسية). والتي يشار إليها بـ«قوى» العقل. لكن لا ينبغي للقارئ أن يخلط هذه الاستعارة مع التفسير العلمي. لم يبرهن فرويد على أن هناك مصادر للطاقة في الرأس ولم يبين بالتحديد ما الذي يتغير عندما يصبح الشخص هستيرياً. اعتمد فرويد على تدريبه السابق في مجال علم الأحياء ليدله على أنواع الأفكار التي تصلح في تفسير الكيفية التي تتحول فيها الخبرة المؤلمة إلى مرض عضوي.

وفي الحقيقة لا يمكن أبداً إطلاق صفة العلمية التقليدية على طرائق فرويد. إذ لم يجر فرويد تجارباً مضبوطة على مرضاه، ولم يغير أبداً أسلوبه معهم بطريقة مختارة عشوائياً ليرى الأثر الذي يحدثه عليهم. كما أنه لم يقتصر أبداً على ملاحظة مرضاه الأثرياء لكي يرصد المسار الطبيعي لمرضهم، بل حاول عوضاً عن ذلك أن يساعدهم.

هذه هي نقطة القوة ونقطة الضعف في طريقة فرويد. اتكل فرويد على مرضاه في الحصول على أفكار جديدة وفي البرهان على نظرياته. لقد كان فرويد ملاحظاً دقيقاً ولكن ما الذي كان عليه أن يلاحظه؟

لم يشهد فرويد أعراض مرضاه لكنه شاهد تفاعله مع هذه الأعراض. وكما بدى الأمر مع أنَّا أو. إذ كان

بمقدور المعالج أن يكون له تأثير قوي على حياة المريض النفسية، وليس من الضروري أن يكون تأثيراً نافعاً.

وضع فرويد ملاحظاته على شكل دراسة حالة. وأثناء قيام فرويد بدراسة الحالة كان يكتب ملخصاً زمنياً عن مرض المريض من الأعراض الأولى إلى حالة المريض عند انتهاء المعالجة. والأمر المؤسف هو أن فرويد كان يغير كثيراً من الحقائق المتعلقة بالحالات التي كان يدرسها من أجل حماية خصوصية مرضاه.

أدت هذه الرقابة التي مارسها على الحالات المدروسة إلى تشويه البحث الذي يقوم به في حالة كاثارينا آر. Katharina R. وهي إحدى المريضات التي ذكرها في الدراسات. غيَّر فرويد من هوية الشخص الذي حاول أن يغوي مريضته بإبعادها عن أبيها وتقريبها من عمها. إن عملاً كهذا يجعل الأمر صعباً على الآخرين الذين يراجعون أعماله أن يحكموا بأنفسهم على مشكلات المرضى.

وعلى نحو مشابه، بما أن دراسات الحالة عبارة عن سجلات المعالجة الفردية فإنه ليس بمقدور أي شخص آخر أن يكرر هذه الحالات. إذ يقوم الباحثون في معظم العلوم بإعادة التجارب المنشورة للتأكد من صحتها. لأن التوصل إلى النتائج ذاتها يساعد على بيان أن الباحثين الأصليين ذكروا إجراءاتهم البحثية على نحو دقيق وأن نتائجهم ليست محض الصدفة. دراسات الحالة عنده بالتعريف هي وصف دقيق للأفراد ومن غير الممكن تكرار

عملية الوصف ذاتها. على أية حال يمكن للباحثين الآخرين أن يحاولوا تطبيق إجراءات فرويد ذاتها على مرضاهم أو أن يعيدوا تحليل ما كان قد كتبه.

وكان لفرويد أيضاً سمعة مهنية أيضاً عليه أن يحميها، إذ تم تقديم عدد كبير من الحالات التي عمل عليها كأمثلة عن علاجه الناجع، حتى الحالات التي انتهى المريض من العلاج بنتائج متضاربة كما حصل مع أنّا أو. وحينما لا يشفى مرضى فرويد تماماً بواسطة طرائقه يكون الدافع عنده ضعيفاً لنشر معاناتهم. لقد كان على زملاء فرويد من الممارسين أن يقبلوا دراسة الحالات التي أجراها بالاعتماد على النوايا الحسنة.

وكان عليهم أن يثقوا بأن أية معلومات أهملها فرويد ليس لها أهمية بالنسبة للحالة وأنه قد ترك ما يكفي من المعلومات الصحيحة المعنى للحالة، وأنه لم يتمسك بالطرائق القديمة عندما واجهه إخفاقاً في العلاج.

وفي الوقت ذاته، كانت دراسات الحالة عند فرويد على قدر كبير من الأهمية. فعلى الرغم من أن دراسة الحالات تعالج حالات فردية كان فرويد حريصاً على بيان الكيفية التي أظهر فيها كل مريض جوانباً عامة تدعم نظرياته فإذا أخذنا حالة معينة وجدنا أنها من الممكن أن تتفق مع صنف من أصناف المرض ومع نمط النشاط النفسي. من الواضح أن دراسات الحالة قد منحت من يتابع أعمال فرويد الفرصة لكي يرى تماماً كيف استخدم نظرياته في الممارسة العيادية الواقعية.

شفاء كاثارينا

«قمت برحلة. . . إلى درجة أنه كان الممكن أن أنسى الطب وبشكل أكثر تحديداً العُصابات». هكذا كتب فرويد في دراسات عن الهستيريا (1895). كان فرويد يمضي إجازة في الجبال عندما سألته كاثارينا البالغة من العمر 18 عاماً والتي تعمل في فندق صغير، عن أعراضها. فقد شعرت بالغثيان، وضيق التنفس، وأحست وكأنها سوف تختنق وبكل أعراض الهستيريا التقليدية. قال لها «لا بد أنك رأيت أو سمعت شيئاً ما محرجاً جداً لك وتتمنين لو أنك لم تريه».

أخبرت كاثارينا فرويد أنها قد رأت قبل عامين أباها مضطجعاً فوق ابنة عم لها باربارا Barbara. وفي تلك اللحظة، قالت كاثارينا، «كل شيء أصبح مظلماً، وانطبقت أجفاني على بعضها، وسمعت صوت طرق وطنين في رأسي».

بعد يومين، وقعت كاثارينا في المرض. اعتقد فرويد أنها كانت مريضة بفعل نفورها ـ ولكن من ماذا؟ وبعد مزيد من الاستفسار صرحت كاثارينا بأن والدها «حاول الاقتراب منها جنسياً حينما كان عمرها أربعة عشر عاماً فقط»، حينما «استيقظت من نومها فجأة أحست بجسمه في السرير» انزعجت كاثارينا لكونها تم إيقاظها لكنها لم تشعر أنها تعرضت للاعتداء الجنسي إلا حينما رأت ابنة عمها وأبيها معاً.

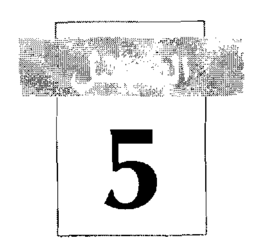
كتب فرويد «لم تشعر كاثارينا بالنفور بفعل رؤية الشخصين معاً. ولكن بفعل الذاكرة التي أثارها المشهد في نفسها». عندما تذكرت كاثارينا ما حصل «أشرق ذلك الوجه المتجهم البائس، وظهر بريق في عينيها وشعرت بالارتياح والسمو». لقد شفيت.

لقد قدمت دراسات الحالة عند فرويد إلى قرائه الفرصة لكي يروا كيف تنطبق نظرياته على الواقع وعلى الأشخاص المضطربين.

اعتقد فرويد من أعماقه أن مرضاه الهستيريين بحاجة فقط إلى أن يتحرروا من الذكريات المكبوتة حتى يتعافوا من أعراضهم. لقد بين، في دراسات الحالة، كيف يمكن للمعالج أن يحقق ذلك. مكنت الدراسات فرويد أن يبين للذين يطّلعون على أعماله كيف اكتشف تماماً أسرار مرضاه. لقد قارن أكثر من مؤلف واحد دراسات الحالة عند فرويد بالروايات البوليسية حيث يتحرى الطبيب مصدر متاعب المريض من بضع إشارات مخادعة ومستترة. في كل مرحلة من مراحل المعالجة يستطيع القارئ أن يرى إن كان موافقاً على استنتاجات فرويد. إن كل ما يحتوي عليه منطق فرويد من مضامين متوافر للجميع من أجل الإطلاع.

ومهما كانت الثغرات المحتملة في طريقة فرويد، فقد كان مغرماً ببحثه. كتب فرويد إلى فلييس في عام 1895 «إن رجلاً مثلي لا يستطيع العيش من دون هواية، ومن دون عاطفة جياشة، ومن دون ـ أن تتكلم مع ستشللر Schiller ـ الشخص المستبد، الذي تعلم مني، فهو في أثناء وجوده في الخدمة كما أعرف الآن لم يعرف الاعتدال. إنه علم النفس». وأخيراً مع اكتشافاته الجديدة يمكن أن يكون قد امتلك فرصة الشهرة التي استعصت عليه في الماضي.

في عام 1896 شعر فرويد بالحاجة إلى مصطلح جديد يصف به أعماله. كما أنه قد توقف عن استخدام التنويم والإيحاء، وكان يمارس العلاج مستخدماً التداعي الحر على أنه طريقته الرئيسية في المعالجة. ولتثبيت دعائم دراسته للعقل، استخدم فرويد في البداية مصطلح التحليل النفساني «psychological analysis» الذي قدمه الطبيب والباحث الفرنسي بيير جانيت Pierre Janet. إلا أنه قبيل عام 1896 ارتكز علاج فرويد على أعماله هو وليس على أعمال جانيت وقرر فرويد أن يدعو طريقته بالتحليل النفسي psychoanalysis.



المغادرات

قبيل أعوام التسعينيات من القرن التاسع عشر، أصبح فرويد طبيباً له مكانته وعضو ممتاز في الطبقة الاجتماعية المتوسطة. في عام 1891 انتقلت عائلة فرويد إلى بناء بيرغاس Berggasse رقم 19. عاش فرويد في ذلك البناء لمدة 47 عاماً إلى أن فرَّ من النازيين في عام 1938. ملأت عائلة فرويد منزلهم بالسجاد والطاولات والأكواب والخدم والأطفال. وبعد ولادة ابنتهم ماتيلدا في عام 1887، كَبُرت عائلة فرويد بسرعة مع قدوم جين مارتن كانت تدعوه أسرته باسم (مارتن) في عام 1889 وتبعه أوليڤر Oliver في عام 1891 وإرنست Ernst في عام 1892 وصوفي Sophie في عام 1893 وأنَّا Anna في عام 1895. كانت لدى فرويد عادة تسمية أولاده على أسماء أصدقائه ومعلميه هو وليس لمارثا. إذ نجده يسمي جين مارتن



يقف فرويد في أقصى اليمين مع شقيقتيه وأولادهما أثناء العطلة الصيفية في عام 1900. في كل صيف تغادر عائلة فرويد ڤيينا لقضاء إجازة في الجبال.

على اسم تشاركو وأوليڤر على اسم أوليڤر كرومويل الثائر البريطاني في القرن السابع عشر الذي أسقط النظام الملكي، وإرنست على اسم بروك، وماتيلدا على اسم زوجة بروير، وصوفي وأنًّا على اسم ابنة وابنة أخ لمعلمة له في المدرسة الثانوية. رعت مارثا الأولاد وما مروا به من أحوال صحية كالدفتريا والرشوحات وجدري الماء والزكام وكانت حريصة على تقديم وجبة الغداء في موعدها المحدد كل يوم. كان فرويد يستمتع بلحم البقر المسلوق على وجه التحديد ويكره لحم الدجاج. كان يعلم أولاده «لا ينبغي للمرء أن يقتل الدجاج، دعوهم يعيشوا ويضعوا بيوضاً».

من فصل الخريف إلى فصل الربيع، كان فرويد يعمل ستة أيام في الأسبوع. وكان يرى المرضى من الساعة 8:00 إلى الساعة 12:00، ويكتب ملاحظاته، ويأكل في الساعة 1:00 ويتمشى ثم يتحدث مع أطباء آخرين أو يرى مزيداً من المرضى من الساعة 3:00 وحتى الساعة 9:00. تذكر ابن فرويد مارتن أحياناً عمل فيها أباه من 16 ساعة إلى 18 ساعة في اليوم الواحد. وفي يوم السبت كان فرويد يلعب بورق (الشدة) مع أصدقائه القدامى بما فيهم الدكتور ليوبولد كونيغستاين الذي شاركه في إجراء البحوث على الكوكائين، وفي أيام الأحد كان يزور والدته، أما في الأعياد كما استذكر مارتن فرويد فيما بعد: «كانت احتفالاتنا في أعياد الميلاد مع الهدايا الموضوعة تحت شجرة مزدانة بالأضواء وفي عيد الفصح

مع البيض الملون بألوان زاهية. لم أكن أذهب أبداً إلى الكنيس اليهودي synagogue ولا حتى أشقائي أو شقيقاتي كما أعلم».

في كل عام كانت عائلة فرويد تغادر ڤيينا في شهر أيار أو تموز ذاهبة إلى المنتجعات على الجبال. تذهب مارثا والأولاد أولاً مع شقيقة مارثا مينا Minna التي انضمت إلى أهل البيت في التسعينيات من القرن التاسع عشر بعد وفاة خطيبها بمرض السل. وكان من عادة فرويد أن يستمر في العمل حتى شهر تموز وبعد ذلك ينضم إلى عائلته لقضاء عطلة العيد والبقاء معهم حتى منتصف شهر أيلول. وغالباً ما كان يمضي بضع أسابيع مسافراً بمفرده لمشاهدة الآثار القديمة والمواقع الأثرية. وكان الأولاد يسيحون صعوداً ونزولاً في هضاب باڤاريا يبحثون عن ثمار الفريز (الفراولة). وفي أواخر الصيف كان فرويد يقود صغاره في رحلة صيد نبات الفطر ويعلمهم التعرف على الغاريقون السام والتهام عينات مختارة منها بلا خوف.

أحب فرويد أولاده لكنه لم يخطط في بداية زواجه أن ينجب ستة أولاد. كان فرويد ومارثا يأملان أن آخر حمل لها بابنتهما أنّا هو انقطاع مبكر للطمث. وكان فرويد مشغول البار كثيراً عن صحة أولاده وكان يكتب في رسائله إلى فلييس عن كل مرض يمرضونه - يبدو أن كل مرض ينتقل دائماً من طفل إلى طفل إلى أن يمر الدور

على الجميع. عندما شارفت ماتيلدا على الموت بعد أن خضعت لعملية جراحية في عام 1905، رمى بخفة على الجدار محطماً واحداً من أحب التماثيل الرخامية الصغيرة على قلبه.

كتب فرويد فيما بعد في (علم النفس المرضي في الحياة اليومية) «إن هجومي الصادر عن الغضب الهدام قد ساعد على التعبير عن مشاعر الامتنان للقدر وسمح لي أن أقوم بفعل فيه تضحية أكثر من لو أنني هممت بالتضحية بشيء ما أو بآخر كنوع من التعبير عن الشكر إن هي تماثلت للشفاء».

وعلى الرغم من كثرة الأشياء التي عرقلت نشاطه، استمر فرويد في إيجاد الوقت للتأمل في أسباب الأمراض النفسية. ومع مرور الوقت أضحى فرويد مقتنعاً لقوة أن الكبت الجنسي هو السبب الأصيل للهستيريا. في عام 1894 كتب فرويد «في جميع الحالات التي حللتها كان موضوع الحياة الجنسية هو الذي يقف وراء اضطراب العاطفة عندها». أعلى فرويد شأن نظرية جنسية للهستيريا، بينما نأى بروير عن ذلك. وكان لكل منهما أسبابه الخاصة. كتب فرويد في (دراسات عن الهستيريا) (1875)، «إن الغريزة الجنسية هي من غير شك المصدر الأقوى للزيادة المستمرة في الاستثارة وبالتالي في العصابات». وبعبارة أخرى تؤدي الدوافع الجنسية إلى زيادة في «الطاقة» النفسية التي رأى رويد وبروير «وجوب

التخلص منها». ومع ذلك اعتقد بروير أن الجنس من الممكن ألا يكون المصدر الوحيد للطاقة النفسية. وقبيل عام 1894 توصل فرويد إلى الاعتقاد الذي مفاده أن الدوافع الجنسية المحبطة هي المصدر الوحيد للأعراض الهستيرية إن الاختلاف في الرأي العيادي بين الرجلين كان باعثاً على حدوث الصدع بينهما.

كان بروير باحثاً حريصاً ودقيقاً، فقد أجلَّ نشر اكتشافاته عن الأذن الداخلية إلى أن أثبت نتائجه في عينات متعددة. لقد أخَّرت، نزعة بروير إلى الكمال في الأعمال والارتياب الذاتي، نَشر دراسة حالة أنَّا أو. لأكثر من 12 عاماً بعد أن انتهى من تحليلها وبقي غير مرتاح من محتوى الدراسة.

كتب بروير فيما بعد «أعترف أن الانغماس في موضوع الجنسية في النظرية والتطبيق يتعارض مع ذوقي» وفي ذات الوقت كان الباحثون في فرنسا ينشرون أعمالاً عن الهستيريا مما جعلت أعمال فرويد وبروير تبدو أقل أصالة.

وعلى صعيد آخر، شعر فرويد بالحاجة الملحة للنجاح بعد حادثة الكوكائين وإخفاق بحثه في موضوع الهستيريا عند الذكور.

آمن فرويد بنظريته إيماناً جازماً وأراد أن يروج لها بكل ما أوتي من إمكانات قبل أن يسرق شخص آخر أفكاره. واعتبر حذر بروير منها خيانة. وقد زاد من سوء

العلاقة بين فرويد وبروير هو أن فرويد مديون بأفضالِ بروير عليه الذي سمح له بالمشاركة في حالة أنّا أو. وفي طريقة العلاج بالتنفيس الانفعالي معه، ناهيك عن ذكر القروض المالية التي منحها بروير إلى فرويد عند زواجه.

لقد بدا الآن بروير إلى فرويد مستمسكاً بالماضي، وسبباً في تراجع نشاطه المهني. وكان على فرويد أن يقاوم بروير حتى يفتح الطريق أمام كتابه (الدراسات) لتصل إلى مرحلة الطباعة. وفي الوقت الذي شارف فيه الكتاب على النشر في عام 1895 كانت العلاقة سيئة بين فرويد وبروير. لم يستطع بروير تقبل فكرة الطاقة الجنسية على أنها السبب الوحيد للهستيريا كما لم يستطع فرويد تحمل تشكيك بروير بفكرته. أخذ فرويد يخفض مستوى الاتصال بينه وبين بروير تدريجياً وفي عام 1877 حرص فرويد على الابتعاد عن بروير الذي كان في وقت من الأوقات شريكه وصديقه. وأضحى فرويد يعتمد كلية على ويلهالم فلييس في تقديم المساندة والنقد لنظرياته التي ما تزال في طور النمو. وبينما كان فرويد يتفكر في الهستيريا كان يطور أيضاً تقانات علاجية. فقد تعرف فرويد عن طريق إيمي ڤان إن. وأنّا أو. وإليزابيث آر. على «علاج الكلام» وعلى استخدام طريقة بروير في التنفيس الانفعالي.

كما تعلم أن يصغي بفعالية إلى قصص مرضاه وأن يدفعهم إلى البحث عن مصادر أعراضهم. لقد كان ناجحاً

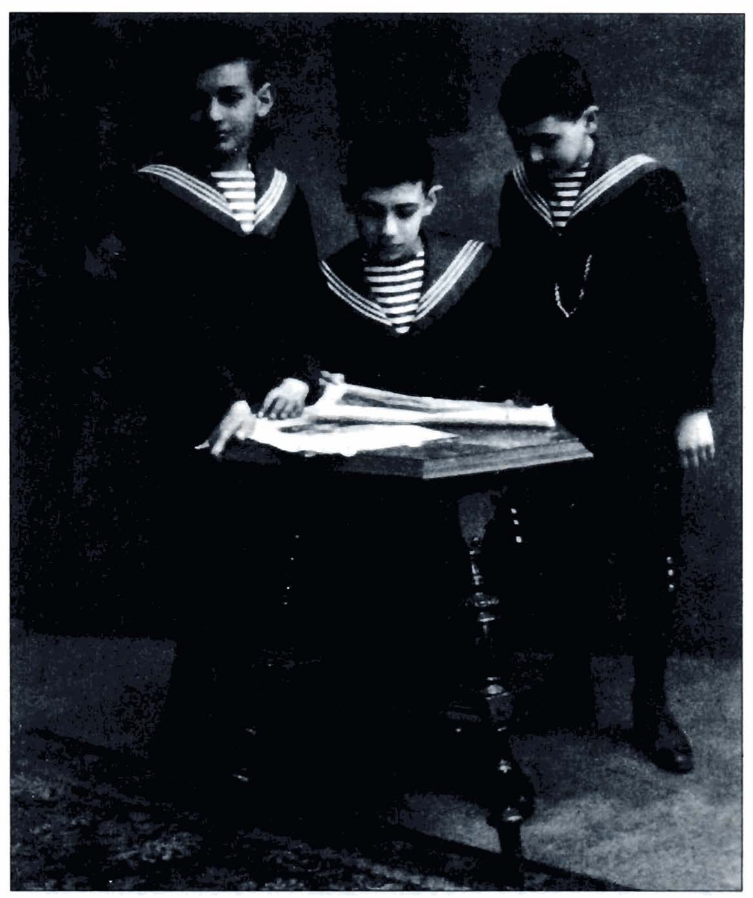
في مزاولة مهنته إلى درجة جعلته يصبح طموحاً. فبدأ بتأليف كتاب عن النظرية الأساسية في علم النفس.

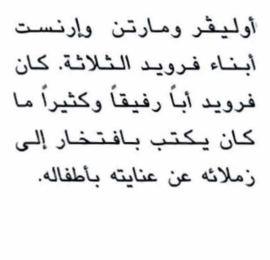
كان لفرويد مقاصد عدة من (مشروع علم النفس العلمي) Project for a Scientific Psychology مثله مثل كل باحث تقريباً عاش فرويد عصر النهضة ورغب في أن يثبت أن هناك قوانين ثابتة تتحكم بسلوك الإنسان. سعى فرويد إلى أن يظهر أنه بالإمكان اختزال هذه القوانين إلى مبادئ فيزيولوجية وكيميائية وميكانيكية التي تتحكم بالمواد الأخرى تماماً مثل ما فعل أستاذه الجامعي المعادي للمذهب الحيوي إرنست بروك قبل سنوات. باختصار أراد فرويد أن يبين أن علم النفس ما هو إلا علم متخصص آخر.

ومع ذلك كان لدى فرويد أسباب أخرى للشروع في المشروع.

أمضى فرويد وبروير وقتاً طويلاً يشرحان فيه الأساس الذي تقوم عليه الهستيريا والمرض العقلي، لكنهما لم يتوصلا إلى شرح الكيفية التي يعمل فيها العقل السليم. أراد فرويد أيضاً أن يسبر مسألة الكبت. ما هي القوانين التي تتحكم في كيفية حماية العقل لذاته من الذكريات المؤلمة؟

وصف فرويد في كتابه (المشروع) كيف تنتقل الطاقة عبر الدماغ يستقبل الدماغ، كما قال فرويد، «الاستثارة» إما من أحداث العالم الخارجي أو من أحداث داخل





أوليفر ومارتن وإرنست أبناء فرويد الثلاثة. كان فرويد أباً رفيقاً وكثيراً ما كان يكتب بافتخار إلى زملائه عن عنايته بأطفاله.

الجسم. تُحدد المبادئ الطريقة التي تتحرك بها الطاقة. العطالة inertia هي ميل الدماغ لأن يفرغ الطاقة والاستقرار constancy وهي الميل إلى المحافظة على استقرار كمية الاستثارة الكلية في الدماغ.

لكي نفهم كبقية التحكم بهذه الطاقة، توصل فرويد إلى معرفة البنى الدماغية المسؤولة عن الاستثارة أطلق على هذه البنى اسم «العصبونات». واعتبر أن اللذة أو

السعادة عبارة عن تفريغ للطاقة أما الكرب unpleasure فهو عبارة عن تنامي الاستثارة. يفترض في هذه البنى أن تؤدي وظيفتان مختلفتان هما العمليات الأولية والعمليات الثانوية. تتيح العمليات الأولية للطاقة أن تجري بحرية عبر الدماغ. أما العمليات الثانوية فإنها تمكن الدماغ من التمييز بين المثيرات الداخلية والخارجية المختلفة ومن كف بعض هذه المثيرات. ويتم عمل هذه «المحاكمة» كما جاء في كتابات فرويد بواسطة بنية عقلية تعرف باسم الأنا ego.

يحشد الأنا الطاقة لمنع الهلوسات والحوادث الأخرى التي تقع صدفة من التشويش على العقل.

عندما صاغ فرويد هذه النظرية المعقدة عن الطاقة العقلية أو النفسية كان يرتكز على معرفته التشريحية أو البيولوجية للدماغ. كما أنه لم يتكلم على الإطلاق عن البنى العضوية وكان يصف العمليات العقلية التي تلقى الدعم من الوظائف البيولوجية للدماغ بطريقة ما غير محددة. إلا أنه كان يعلم أن مفهومه عن العقل ناقص من دون نموذج بيولوجي أو ميكانيكي لعملية إبقاء الأفكار المزعجة في مستوى اللاشعور أو تحت الكبت. إذ أن الحديث عن الطاقات المتنقلة لم يكن كافياً.

وهذا أحد الأسباب التي جعلت الصداقة مع فليس بهذه الأهمية بالنسبة إلى فرويد. إذ كان يأمل من فليس أن يزوده بالأساس البيولوجي الذي يحتاجه لتبرير الآليات

النفسية التي جاء بها. من الممكن أن يفضي تعاون فلييس مع فرويد إلى تمكين فرويد الذي كان هو ذاته ضليعاً في علم الأحياء من التفكر بالعقل وليس بالدماغ. وكما جاء في رسالة فرويد إلى فلييس «إن فكرة أن كلينا مشغول بنفس النوع من العمل هو أكثر ما يسعدني من وجهة نظري إذ أستطيع أن أرى كيف أنك تستطيع بواسطة الالتفاف على مزاولة مهنة الطب أن تصل إلى أفضل فهم ممكن للكائنات البشرية بصفتك عالم بوظائف الأعضاء تماماً مثلما أعيش أنا على أمل الوصول عن طريق اتباع نفس المسارات للوصول إلى هدفي الأول في الفلسفة».

ألَّف فرويد وثيقة مؤلفة من عدة فصول تلخص أفكاره وبعث بها إلى فلييس ليحظى بموافقته عليها وذلك في 8 تشرين الثاني من عام 1895. وعلى الرغم من كتابته الملتهبة ساورت فرويد الشكوك. وفي رسائله إلى فلييس ابتعد فرويد عن ذكر «حُمى الكتابة» عنده إلى ذكر هجمات صداع الشقيقة والإرهاق كما صرح بأنه كان مُجهَداً ومؤرقاً ومشوشاً. وفي النهاية لم يستطع فرويد أن يشكل نموذجاً ميكانيكياً أو بيولوجياً للكبت الذي أراد أن يقيمه لغرض التفسير. وما ذكره عن الطاقات المتنقلة لم يكن كافياً لذلك قرر في النهاية أن يهجر هذا المشروع.

وعلى الرغم من أن مفهوم فرويد عن العقل كان ناقصاً إلا أن طريقته كانت ذات معنى. فقد أنشأ مخططاً منطقياً داخلياً يصف كيف تتحول الطاقة الفيزيائية إلى طاقة

نفسية. تم الاصطلاح على مشروع فرويد من قبل كثير من الكتّاب باسم «النيوتوني». وبشكل مماثل لأفكار إسحاق نيوتن عن القوانين الكونية للحركة والجاذبية حيث كانت ثورية وناقصة، اتخذ فرويد الخطوات الأولى في وضع علم النفس على المسار العلمي. وكان قد ألحّ على أنه باستطاعة محتوى التفكير أن يحدث سلوكاً مضطرباً، وأنه في ظل الظروف الطبيعية يمكن بطريقة ما مراقبة الأفكار المزعجة فإنه بناء على ما سبق يكون هناك مستويات مختلفة للأفكار، بعض هذه الأفكار لا يدري بها العقل الواعي أو الشعوري.

اعتقد فرويد أيضاً منذ عام 1896 أن السبب الأصيل لكل أنواع العصاب والمرض العقلي هو الجنس. قسم فرويد العصابات إلى عصابات نفسية كالهستيريا والوساوس المتسلطة التي تَحدثُ بفعل رضى جنسي في الطفولة إلى عصابات حقيقية والتي تظهر بفعل انحرافات في الحياة الجنسية بعد البلوغ عند المريض.

يعاني ضحايا العصاب الحقيقي، كما يعتقد فرويد، من الإحباط الجنسي، وعلى وجه الخصوص من الاستمناء ومن الانقطاعات التي تصيب عملية الجماع الجنسي (كانسحاب عضو التناسل الذكري من البَظر أثناء الجماع الجنسي قبل أن يصل الذكر إلى الذروة أو النشوة الجنسية).

إن هذه النظرة المبسطة عن الجنسية عند البالغين -

التي تعتبر أن الحرمان من اللذة الجنسية يؤدي تلقائياً إلى المرض النفسي. قد أعرض عنها معظم الباحثون والمعالجون العصريون. كما عارض فرويد ذاته فيما بعد نظرته المبكرة. ومع ذلك يشعر كثير من المعالجين في وقتنا الحاضر أنه ربما كان فرويد على حق في عام 1896 عندما بدأ بالتأكيد على أن بعض العصابات التي تصيب الكبار تعود على وجه التحديد إلى تعرضهم للاضطهاد الجنسي وهم أطفال على يد أناس كبار. إن نظرية فرويد في الهستيريا هي نظرية في الذاكرة، إذ أطلق عليها اسم «نظرية الإغواء» Seduction Theory.

ووفقاً لهذا النموذج يتسبب الرضى الجنسي في الطفولة أساساً، والذي تكون له ردة فعل شديدة، في إحداث الأعراض الهستيرية. لا يستطيع الطفل أثناء تعرضه للاعتداء الجنسي أن يستوعب ما الذي حصل له تماماً. عند البلوغ يمكن للشخص الهستيري الناضج جنسياً أن يعاني من شدة نفسية قليلة. ومن المعتاد أن لا يكون هذا الرضى الجديد شديداً بحيث يؤدي إلى حدوث الهستيريا، لكنه يستطيع أن ينعش ذكريات الاضطهاد الجنسي أثناء الطفولة، التي يستطيع الشاب أن يعيها الآن. يُحوِّل الرضى الطفولي طاقته إلى خبرة جديدة ويكتسب المريض فجأة استثارة زائدة. يتم تفريغ هذه الطاقة على شكل أعراض جسدية من مثل الشلل. أما الوساوس فلها شأن آخر. عندما حدث للمرضى الوسواسيون خبرات جنسية طفولية لم يعانوا بنفس الطريقة التي عانى منها

المرضى الهستيريون. لقد شعر الوسواسيون باللذة لكنهم لم يكونوا قادرين على تحويل الاستثارة الزائدة عندهم إلى أعراض جسدية، وعوضاً عن ذلك كان بمقدور الشخص الوسواسي أن يفعل بين الفكرة الممنوعة والاستثارة الحاصلة عنده. إن هذه الطاقة التي أصبحت الآن حرة تعلن نفسها بفكرة أخرى أكثر قبولاً والتي يحوم حولها العقل مرات ومرات. إن الوساوس في جوهرها هي تعبير عن الذنب في حين أن الهستيريا هي ذاكرة الاضطهاد.

اعتقد فرويد بطريقته الڤكتورية، أن هذه الأفكار قد فسرت أسباب شيوع الهستيريا إلى حد كبير بين النساء، بينما تشيع الوساوس بين الرجال بشكل أكبر. لقد قبل التصور السائد عن النساء أنهن سلبيات تجاه الجنس ويخفن منه.

بينما يستمتع الرجال على نحو فعال بالجنس. لم يستطع فرويد، الناقد الكبير للثقافة الڤكتورية عند الطبقة المتوسطة، أن يحرر نفسه تماماً من انحيازها.

لقد كانت نظرية الإغواء عند فرويد بمثابة عمل فني رفيع له، ضمت كل أعماله السابقة.

تفسر نظرية الإغواء بطريقة مقنعة كيف تحدث الأعراض الهستيرية ولماذا تبدو جميع مشكلات مرضاه أنها تحتوي على الجنس. وفي 21 نيسان من عام 1896 ألقى فرويد محاضرة إلى جمعية ڤيينا للطب النفسي عن

أفكاره المتطورة في أصل الهستيريا. وصرح بأنه كان بمثابة المكتشف الذي يتفحص آثار مدينة قديمة حيث يسبر أغوار الماضي المؤلم عند المريض الهستيري. أظهرت كل حالة من 18 حالة هستيريا كان قد عالجها فرويد، كما ادعى، أن الهستيريا متأصلة في خبرة الاضطهاد الجنسي في الطفولة. قارن فرويد هذا الكشف باكتشاف منابع نهر النيل. ومع ذلك صرح فرويد أنه حينما أحصى مرضاه مشاهد الاضطهاد الجنسي، لم يشعروا أنهم كانوا يتذكرونها كما فعلوا عندما اكتشفوا ذكريات أخرى كانت غائبة.

تم إجمال ردة الفعل على كلام فرويد من قبل ريتشارد ڤان كرافت ـ إبنغ Richard Von Kraft-Ebing، وهو باحث قد ير في موضوع الجنس الذي قال «يبدو كأنه حكاية علمية». لم تكن نظرية الجنس هي المشكلة إذ أن كثيراً من الدراسات الطبية النفسية لحالة الفتيات اللاتي تعرضن للاعتداء من قبل آبائهن قد تم نشرها. وبالرغم من ذلك اعتقد معظم الخبراء أن السبب في حدوث الهستيريا هو إما الرضى الجسدي في البحث أو ميل فطري ما يساعد على شكل الحالة وليس بسبب خبرة مزعجة.

وقبيل حلول عام 1896 استغنى فرويد عن هذه الأفكار المقبولة عن الهستيريا. إلا أنه استمر في استخدام الاستعارات اللفظية البيولوجية في عمله وأصبح الآن قيد

إنشاء نظرية نفسية بحتة عن المرض النفسي.

وكان فرويد، في العام الماضي، قد شهد عرضاً حياً لما يمكن حدوثه عندما يتم معالجة المشكلة النفسية مثل المرض العضوي. وفي أثناء فصل الشتاء الواقع بين عامي 1895 ـ 1896 قام فرويد بمعالجة امرأة تدعى إيما إيكستاين Emma Eckstein كانت المريضة تعاني من كثير من أعراض القلق المختلفة، بما في ذلك آلام في المعدة وصعوبة في السير. طلب فرويد، الطبيب صاحب الضمير الحي على الدوام، من فلييس أن يأتي إلى ڤيينا ليرى إيكستاين ويؤكد ما إذا كانت أعراضها نتيجة مشكلات عضوية، كالإصابة التي تعرضت لها في أنفها.

وبعد إجراء الفحص الطبي قرر فلييس ضرورة العمل الجراحي لأنفها وقام هو بإجرائه في أواخر شهر شباط عام 1895. لم تعد إيما إيكستاين تشتكي من آلام المعدة وعوضاً عن ذلك بدأت تعاني من ألم مبرح ومن نزيف في أنفها ومن رائحة كريهة صادرة عن الموقع الذي أجري فيه العمل الجراحي.

وبعد أسبوعين من العملية أحس فرويد بالقلق والتشوش وأحضر جراحاً محلياً ليراها. وبعد أن قام الجراح بتنظيف المنطقة حول الجرح، كما جاء في رسالة فرويد إلى فلييس، «سحب فجأة شيئاً يشبه الخيط. استمر في السحب، وقبل أن يجد أي منا الوقت لأن يفكر تم استخراج نصف متر من الشاش على الأقل من التجويف. وجاءت اللحظة التالية بسيل من الدم. ابيضَّ وجه

المريضة، وانتفخت عيناها، ولم يعد نبض قلبها محسوساً». أعاد الجرّاح تضميد الجراح بسرعة موقفاً نزيف الدم. بينما انطلق فرويد الذي كان يرتجف خوفاً إلى الغرفة المجاورة ليشرب كأساً من الكونياك. ولما عاد حَيتْهُ إيكستاين معلقة «إذاً هذا هو الجنس القوي».

كان فرويد مرعوباً من عدم نجاح عملية فلييس. إلا أنه كان واضحاً ارتكاب خطأ نسيان الشاش في تجويف أنف المريضة مما أعاق التئام الجرح على النحو المناسب. لقد شاهد فرويد بوصفه طبيباً دماءً كثيرة. وكان الشيء الذي أغضبه هو «أن هذا الحدث المؤسف قد حصل معه» كما صاغها فرويد بعناية في رسالته إلى فلييس. في عام 1895 لم يكن لفرويد أصدقاء كثر ولم يكن بمقدوره تحمل الانفصال عن فلييس، وبدلاً من ذلك وجد طريقة في إلقاء اللوم على الشخص الآخر الوحيد الذي له صلة بهذا الموضوع. ألا وهو المريضة.

وبعد مرور عام على تماثل إيكستاين للشفاء، أخبر فرويد فلييس أنها كانت نازفةُ دم هستيرية. عادت إيكستاين إلى فرويد لمتابعة العلاج كما اعترفت بأن لديها تاريخاً طويلاً من نزف الأنف.

لقد كان نزيف الدم عند إيكستاين، كما فسره فرويد، مراهنة هستيرية للحصول على الاهتمام. عانى فرويد مرارة تبرئة فلييس وجعله يتوقف عن الإحساس بالذنب تجاه مشكلة قطعة الشاش.

وكان مستغرباً أن تسامح إيكستاين فرويد لدوره في العملية الفاشلة وأن تصدق أن أعراضها كانت نفسية رغم أنها لم تعد قادرة على السير في معظم الأحيان لمدى الحياة. حتى أنها أصبحت هي ذاتها محللة. وكان فرويد يراسلها من حين لآخر لسنوات عديدة بعد المعالجة. وبمقدار ما كان فرويد يحاول أن يبعد إيما إيكستاين عن تفكيره بمقدار ما كان يعود هذا الموضوع إلى عقله، ولكن ليس إلى عقله الشعوري.

وفي 23 و24 تموز من عام 1895 بعد خمسة أشهر على عملية إيكستاين، شاهد فرويد ما أسماه «حلم حقنة إيرما» Irma's Injection حلل فرويد هذا الحلم على الفور وقدم نسخة مختصرة منه في المشروع من أجل علم نفسي علمي.

حَلُمَ فرويد أنه التقى بمريضته إيرما في قاعة كبيرة ممتلئة بالضيوف تنحى فرويد بها جانباً وأخذ يؤنبها على عدم قبولها حله قائلاً «إذا كنت لا تزالين تعاني من الألم فإن الغلطة غلطتك وحدك» أجابت إيرما أن آلامها كادت تخنقها. لاحظ فرويد أن إيرما كانت تبدو شاحبة ولاهثة فنظر إلى بلعومها وهناك وجد جرباً أبيضاً على ما قد بدا له هيكل الأنف العظمي. اتصل فرويد بأطباء متنوعي الاختصاص ليفحصوا إيرما، بما في ذلك «أوتو» Otto [أوسكار ري Oscar Rie وهو زميل له كان قد انتقد علاجه مع إيرما في اليوم الذي قبله] وكذلك دعا فليبس.

وكما استدعى فرويد من ذاكرته أعطى أوتو على عجل حقنة إلى إيرما، وربما بمحقنة غير نظيفة. (خلال حياة فرويد المهنية، كان فرويد فخوراً بنفسه كثيراً لأنه على مدى عامين كان يحقن مريضة مسنة بحقنة مورفين مرتين في اليوم ولم يحدث أن أصيبت هذه المريضة بأي إنتان جراء ذلك).

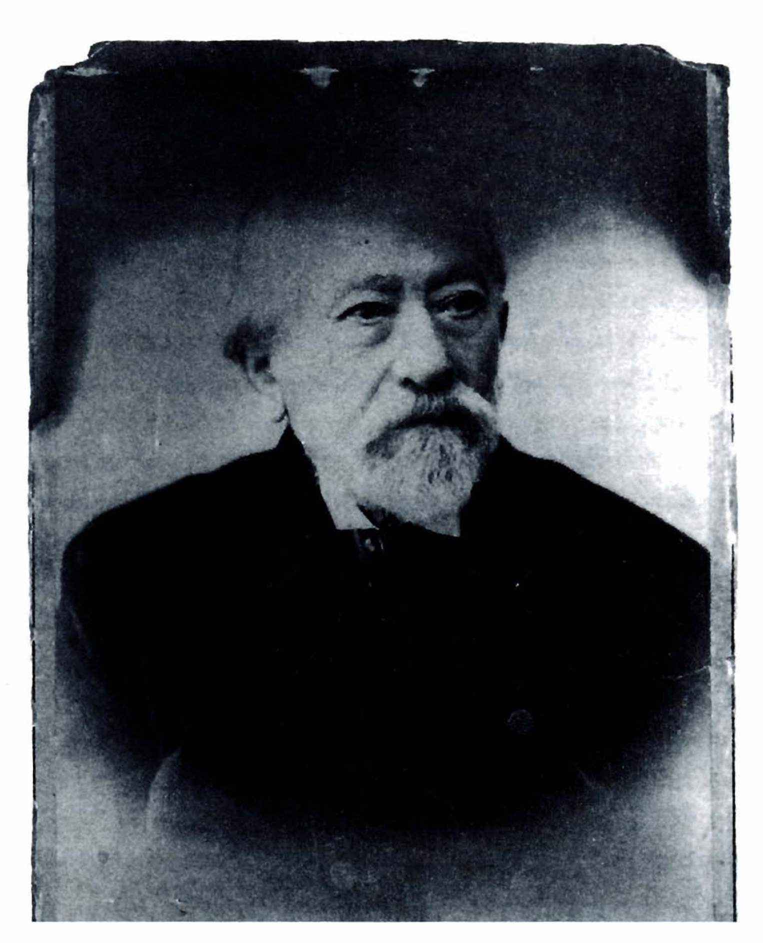
عندما حلل فرويد هذا الحلم في عام 1895 نظر إليه على أنه عملية عقلية أولية، أي تفريغ تلقائي للطاقة النفسية الزائدة. هذا الحلم، والقول لفرويد، ما هو إلا تحقيق رغبة أو أمنية بسيطة. إذ لم يكن استمرار معاناة إيرما خطأ هو مرتكبه وكان قادراً على الثأر من أوتو الذي لم يستطع أن يواجهه في الحياة الواقعية.

لم يذكر فرويد مأساة إيكستاين هنا ولا في أي وقت آخر من حياته، وفي كتابه المشروع لم يكن فرويد جاهزاً للخوض في موضوع التشوهات والاستمارات الغريبة التي صاغت لغة الأحلام. إلا أنه لاحظ أن لهذه الأحلام معنى ويمكن الكشف عن هذا المعنى عندما يكون المريض مستيقظاً.

قال فرويد مازحاً إلى فلييس أنه في يوم من الأيام ستكون على جدار منزلك لوحة تقول «في 24 تموز من عام 1895، انكشف النقاب عن سر الأحلام للدكتور سيغموند فرويد» وفي 23 تشرين الأول من عام 1896 توفي والد فرويد. لم يكن هذا الموت غير متوقعاً إذ كان

عمر يعقوب فرويد 81 عاماً وكان يعالج من اضطرابات في القلب في صيف ذلك العام، على الرغم من عداء فرويد القديم تجاه أبيه ذو الشخصية الضعيفة، إذ كان ذلك الأب الذي ينفض الغبار ببساطة عن قبعته حينما ينزعها شخص أُميٌّ غير يهودي عن رأسه ويلقيها في الشارع، فقد انهار فرويد لموت أبيه.

في عام 1896 كان فرويد طبيباً عمره 40 عاماً وله



أثرت وفاة والده يعقوب في 23 تشرين الأول عام 1896 على فرويد تأثيراً عميقاً ودفعته إلى سبر أغوار نفسيته مما جعله يبدأ بإجراء التحليل النفسي على ذاته.

زوج وستة أطفال وعمل طبي مزدهر. ومع ذلك كتب إلى فليبس قائلاً «أثَّرت عليَّ وفاة والدي تأثيراً عميقاً... أشعر الآن أنني فقدت جذوري تماماً».

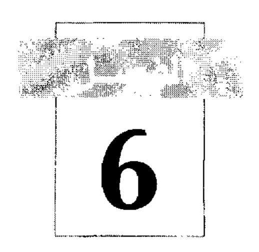
دفعت هذه الوفاة فرويد إلى الشروع في مشروعين: الأول كان تأليف كتاب تفسير الأحلام الذي تم نشره في عام 1899 والعمل الآخر كان يحتاج إلى تكريس أكبر للجهد والوقت والذي نفذه فرويد على مدى حياته وهو تحليله النفسي لذاته.

Dr. Sigm. Freud
Docent für Nervenkrankheiten
a. d. Universität.

Wien, 21 Sept 97
IX., Berggasse 19.

Theurer Wilhelm

Hier bin ich wieder, seit gestern
früh frisch, heiter, verarmt, derzeit
beschäftigungslos u schreibe Dir zuerst
nach hergestelltem Wohnbereich.
Und nun will ich Dir das große Geheim-
niss gleich anvertrauen, das mir in
den letzten Monaten langsam gedämmert
hat. Ich glaube an meine Neurotica
nicht mehr. Das ist wol nicht ohne Erklärung
verständlich; Du hast ja selbst glaubwürdig
gefunden, was ich Dir erzählen konnte.
Ich will also historisch beginnen, woher die
Motive zum Unglauben gekommen
sind. Die fortgesetzten Enttäuschungen bei
den Versuchen, meine Analyse zum
wirklichen Abschluss zu bringen, das
Davonlaufen der eine Zeit lang am
besten gepackten Leute, das Ausbleiben
der vollen Erfolge, auf die ich gerechnet
hatte, die Möglichkeit, mir die partiellen



6

الحلــول

انضم فرويد إلى منظمة بناي بريث B'nai B'rith في ڤيينا وهي منظمة يهودية إخائية في شهر أيلول من عام 1897. مهمة هذه المنظمة هي العمل على «رفع المكانة النفسية والأخلاقية للشخصية لدى الناس الذين ينتمون إلى ديننا» وضمن هذا الإطار كان بمقدور فرويد أن يستمتع بصحبة يهود آخرين من غير أن يضطر إلى حضور الشعائر الدينية. وعلى الفور أضاف فرويد اجتماعات البناي بريث التي تتم كل أسبوعين إلى برنامجه المحدد جداً. وبعد 40 عاماً تقريباً كتب فرويد في رسالة وجهها إلى أعضاء منظمة بناي بريث قال فيها «أصبحت بسرعة واحداً منكم مستمتعاً بعطفكم ولم أحمل أبداً القدوم إلى المكان المحاط بالعدائية من حوله حيث كنت متأكداً أنني سأجد فيه الأصحاب». ألقى فرويد 21 محاضرة لاقت الإعجاب

الصفحة الأولى من الرسالة التي بعث بها فرويد إلى فلييس بتاريخ 21 أيلول من عام 1897، وفيها بدأ فرويد بالتعبير عن شكوكه في مصداقية بعض أعمال فلييس.

في محفل بناي بريث خلال عدة أعوام. حتى إنه تذكر إحدى الجماعات التي كانت متحمسة لأعماله وصفقت له تصفيقاً حاراً، وهذا مخالف جداً لذكرياته عن الحضور الآخرين الذين عرفهم في ڤيينا.

كان سعيداً في كسب الأصدقاء في الوقت الذي كان عمله وحياته الشخصية في حالة اضطراب. وفي عام 1897 بدأ فرويد يساوره الشك في نظرية الإغواء في الهستيريا. وكانت له أسبابه المتعددة للتساؤل عن هذه النظرية. كان أولها حقيقة عدم إظهار علاجه القدرة على شفاء مرضاه تماماً.

إذ أن غالبية مرضاه غادروا العلاج وهم في منتصف الطريق أو قد تماثلوا للشفاء جزئياً فقط. أولئك الذين استمروا في مقاومة محاولات فرويد لاستخراج ما ادعاه «خبراتهم الطفولية المكبوتة». كذلك تضمنت نظرية الإغواء أن الأب في الأسرة هو الذي جلب على المريض فيما بعد الهستيريا. مع أن أشقاء وشقيقات فرويد ذاته قد بدت عندهم أعراض هستيرية ولم يستطع تصديق فكرة اعتداء أبيه على شقيقاته.

كان عقله منشغلاً بمقدار الاعتداء الجنسي في مرحلة الطفولة الذي سيدفع إليه بعدد كبير من المرضى العصابيين. وفي شهر أيلول من عام 1897 كتب فرويد إلى فليس عن «السر العظيم» الذي توصل إليه عن طريق التخمين في صيف ذلك العام. أيقن فرويد أن معظم

قصص مرضاه عن الإغواء غير صحيحة بكل بساطة.

بعد التخلي عن نظرية الإغواء. أصبح بمقدور فرويد أن يستمع إلى تداعيات مرضاه الحرة وإلى قصصهم المطولة لا على أنها حقائق مطلقة وإنما رمز يرمز إلى رسالة عميقة أخرى. ولكن ما هي هذه الرسالة؟ وما هو الأساس الحقيقي للمرض النفسي؟ قرر فرويد أن يبحث عن أسرار الحياة النفسية بذاته.

كان عنده سبب وجيه لذلك فمنذ وفاة والده كانت تعاوده حالة الاكتئاب بين الفينة والأخرى، كما عانى من أعراض عصابية متنوعة خلال معظم حياته وهو في سن الرشد، فقد عانى قلبه من التسارع ومعدته من الألم ورأسه من صداع الشقيقة.

حينما ساءت الأمور بالنسبة لعمل فرويد أصبح نكد المزاج متذمراً من الكآبة والضعف العام إلى درجة أنه لم يعد قادراً على إنهاء عملية التحليل لأي مريض من مرضاه. وأضحى هو ذاته الأمل الأول والأخير لنفسه.

لم يكن فرويد متفائلاً فقد بدا ذلك جلياً في رسالته إلى فليس في شهر تشرين الثاني منذ عام 1897 حيث قال «أستطيع أن أحلل نفسي فقط إذا حصلت على معلومات موضوعية... إن تحليل المرء لنفسه تحليلاً نفسياً حقيقياً أمر مستحيل، زد على ذلك عدم وجود مرض نفسي». وللبحث عن مفاتيح المعرفة الموضوعية في أي طريق كانت، استخدم فرويد مصادر كثيرة لهذه الغاية من مثل

الأخطاء الإعلانية التي كان يرتكبها وهو يكتب أو الأخطاء اللفظية التي كان يقع بها وهو يتحدث أو الأحداث التي ينسى فيها أسماء الأشخاص أو الاقتباسات من الكتب. اشتهرت هذه الأخطاء بما عرف باسم «الهفوات أو الزلات الفرويدية». تظهر هذه الأخطاء عندما تهيمن الرغبات أو النوايا اللاشعورية على الرغبات أو النوايا الشعورية. حلل فرويد أحلامه أيضاً كما أخذ يتصيد في ذكريات طفولته.

عندما بحث فرويد عن مفاتيح عن كيفية عمل عقله هو من خلال الأخطاء التي كان يرتكبها في الحياة اليومية توصل إلى واحدة من أهم مرضيات التحليل النفسي وهي أن لكل فعل سبب. إذ أن فرويد لا يؤمن بالأفعال العشوائية ولا يقبل بفكرة أن يقول المرء شيئاً من غير سبب على الإطلاق. حتى التداعي الحر لم يكن حراً تماماً. إن أي شيء يقوله المريض ما هو إلا نتيجة لعمليات لاشعورية مختلطة مع الأحداث اليومية. يعطي علم النفس الفرويدي للإرادة الحرة حجماً صغيراً جداً.

حالما باشر فرويد في معاينة ذكرياته، عادت إليه مجتمعة. وفجأة تذكر فرويد مربيته الكاثولوكية وخصامه مع أبناء إخوته وأخواته والنظرة الخاطفة لفرج أمه أثناء رحلة في القطار عندما كان في سن الرابعة من العمر. لقد كانت ذكريات فرويد عن المربية التي دربته على استخدام دورة المياه لها أهمية خاصة. استطاع فرويد أن يثبّت

كثيراً من الخبرات التي تذكرها مع مربيته عن طريق الاستفسار من أمه.

وعلى الرغم من عدم صحة نظرية الإغواء كما اعتقد فرويد، فقد أظهرت تأكيدات أمه لهذه الأحداث المبكرة أنه يمكن استخدام تقانات التحليل النفسي للكشف عن ذكريات الطفولة الحقيقية وبخاصة الذكريات الجنسية.

وجد فرويد دليلاً على الدوافع الجنسية لدى الأطفال الرضع في حياته هو.

فقد أحب أمه وشعر بالرغبة الجنسية تجاهها وهو طفل. وتمنى أن يموت أباه وإخوته وكل الأنداد الآخرين حتى يحظى بأمه لوحده. أعطى فرويد فيما بعد عنواناً لهذه المجموعة من الصراعات هو عقدة أوديب Oedipus complex. استناداً إلى الأسطورة الإغريقية يتم إبعاد أوديب عن ذويه عند ولادته لينشأ في كنف أناس غرباء، وبعد ذلك يقتل أوديب أباه عن غير قصد ويتزوج أمه. فيما بعد أضحت فكرة الجنسية عند الأطفال الرضع وأسطورة الأسرة الخاصة بعقدة أوديب تلعبان دوراً مركزياً في نظريات فرويد اللاحقة عن النمو عند الأطفال.

وفي بحث نشره في عام 1898 كتب فرويد «إننا نرتكب خطأ في تجاهلنا للحياة الجنسية عند الأطفال برمتها ومن خلال خبرتي وجدت أن الأطفال قادرين على القيام بكل أنواع النشاط النفسي وبكثير من أنواع النشاط الجسدي أيضاً».

إن هذا التركيز على الرغبة بدلاً من التركيز على الرضى النفسي كان بمثابة نقلة نوعية في تفكير فرويد. كان دائماً يعتقد أن بعض العصابات قد نجمت عن رضى حقيقي. وفي سنوات العقد الذي يبدأ بعام 1890 كان متأكداً أن اثنتين على الأقل من مريضاته قد تعرضتا للاعتداء الجنسي من قبل أبويهما. إلا أن معظم العُصابات في رأي فرويد تحدث بسبب حركة الطاقة الجنسية داخل الطفل.

وبينما كان هو يبحث في ذاكرته، كان يحلم أيضاً، وغالباً ما كان يتذكر أحلامه وكان قد احتفظ بسجل خاص بأحلامه لسنوات خلت. وفي «حلم حقن إيرما» بدأ فرويد في النظر إلى الأحلام على أنها تلبية وتحقق للرغبات. غير أنه تأكد أيضاً أن كثيراً من الأحلام كانت كوابيس وأحلاماً غير سعيدة بشكل صارخ. وبعد طول تفكير، توصل فرويد إلى أن الأحلام ليست دائماً تعابير عن أماني أو رغبات شعورية، إذ لا بد أن يكون هناك مستوى ثانٍ من الحافزية، وربما أنواعاً مختلفة جداً عن تلك الرغبات التي يسمح الناس لأنفسهم أن يفكروا بها.

تحتوي جميع الأحلام على بعض العناصر المشتركة، كما جاء في كتابات فرويد، يبدأ كل حلم بذاكرة من ذكريات الطفولة، وربما من نوع عقدة أوديب أو خبرة ما أخرى مشحونة عاطفياً. ومع مرور اليوم السابق سيكون الحالم قد حاز على بعض الخبرات ذات الصلة بتلك

الذكريات. تشكل هذه الأحداث ما يعرف باسم «أثر النهار» day residve في الحلم. وباجتماع ذكريات الطفولة مع أثر النهار يتشكل المحتوى الأساسي للحلم.

لو كانت الأحلام مجرد أجزاء مجتمعة من الذكريات ومن غداء البارحة لكان تفسير الحلم أمراً سهلاً نوعاً ما. إلا أن الذي يحدث على الأغلب هو تعرض رغبات وذكريات الطفولة للكتب والتخفي من الشعور. لقد بنى الحالم ذكراً كان أم أنثى دفاعات ضد عملية التعرف على رغباته الحقيقية. وفي الأحلام يتم اختباء هذه الرغبات بواسطة آلية مراقبة داخلية، والتي تقوم بتشويه معنى الحلم بطرائق عديدة. ومن الممكن أن تقوم آلية المراقبة هذه بدمج سمات كثير من الأشخاص المختلفين في شخصية واحدة.

يمكن لآلية المراقبة أن تحول أقوال أو أفعال شخص إلى شخص آخر على نحو متبادل في الحلم. كما يمكن لآلية المراقبة أن تستبدل الشخصيات بالرموز في الأحلام، إذ من الممكن أن يصبح الأب ملكاً، والأم خزانة، والطفل حيواناً. كذلك تقوم آلية المراقبة بتحويل الأفكار اللفظية إلى صور بصرية، بينما تستطيع رموز أخرى أن تأخذ شكل تلميحات وتوريات لفظية والمثال على ذلك ما أورده فرويد عن حالة رجل شاهد في حلمه عظماً مكسورةً في الوقت الذي كان فيه قلقاً على انهيار العلاقة الزوجية.

حالما ينبثق الحلم عن هذه العمليات يكون المحتوى

الخفي أو الصراع الداخلي في اللاشعور قد تنكر وتحول إلى محتوى رمزي أو ظاهر. وعندما يصحو الحالم يخضع الحلم لنوع آخر من التنقيح. إذ يقحم الحالم المنطق على الحلم ليصبح معقولاً. وختاماً، كما كتب فرويد. فإن «الحلم تحقيق (متنكر) لرغبة (مكبوتة أو مقموعة)».

وطالما لا تظهر الرغبات الحقيقية للحالم في الحلم أبداً، فإنه يتوجب على مفسر الحلم أن يحل لغز التحولات غير المتوقعة للمحتوى الخفي. ذكر فرويد في كتابه (تفسير الأحلام) عدداً من الطرائق يمكن للرغبات فيها أن تصبح كوابيساً. أما الصنف الآخر شيوعاً من الأحلام فقد كانت مجموعة الأحلام التي حلم بها المرضى الذين أرادوا أن يبطلوا نظريات فرويد. وأكثر نوع شائع من الأحلام المزعجة كان حلم القلق. إذ ادعى فرويد أن بعض أحلام القلق هي نتيجة للرغبات الجنسية، وبخاصة حينما تكشف الرغبة عن نفسها بشكل جلي جداً في الحلم. وفي البعض الآخر من أحلام القلق تكون حالة الخوف أو القلق حاضرة قبل بدء الحلم، عندئذ تستخدم حالة القلق، كأي أثر آخر للنهار، من أجل إظهار رغبة مكبوتة. لم يعتقد فرويد في البداية أن جميع الأحلام كانت نتيجة لرغبات جنسية، فقد بدت أحلام الجوع والحاجات الأخرى جلية في كتابه تفسير الأحلام. لكنه توصل لاحقاً إلى أن جميع الأحلام التي ليس لها معنى واضحاً هي أحلام جنسية بطبيعتها.

استمتع فرويد باشتغاله في تفسير الأحلام. إذ اشتمل تفسير الأحلام على حل الألغاز والتوريات والدعابات يستثنى من ذلك حالة أحلام الأطفال. إذ لم يشكل الأطفال بعد آليات مراقبة داخلية، كما أن أحلامهم بريئة وهي تَحقُقٍ للرغبة لم يتخلله دهاء الكبار - تضورت ابنة فرويد الصغرى أنَّا في أحد المرات جوعاً، وبعد ذلك أتخمت معدتها بثمار الفريز (الفراولة) وتقيأت. وفي تلك الليلة تذكرت في نومها عندما كانت في عمر التاسعة عشر شهراً عبارات طفولية باللغة الألمانية تمت ترجمتها على وجه التقريب كما يلي «أنَّا فرويد، وفريز، وفريز بري، وعجة البيض، وحلوى البودن». لقد صرحت أنَّا عن قائمتها المفضلة من الأطعمة في أحلامها كما أكدت على طعامها المفضل تأكيداً مضاعفاً.

تم نشر كتاب تفسير الأحلام في عام 1899، وهو بلا شك أهم وأكثر أعمال فرويد شعبية. وكما جاء في كتابات فرويد في طبعة لاحقة «تفسير الأحلام هو الطريق الملكية لمعرفة الأنشطة اللاشعورية للعقل». حصل الكتاب على بعض المراجعات الممتازة، ومع ذلك اتفق بعض النقاد مع رأي فرويد فيه الذي بعث به إلى فلييس «هناك الكثير من الأشياء الجديدة، التي لا تصدق وهناك القليل من البراهين القاطعة».

لقد كانت تحليلات فرويد للأحلام، مثل دراسات الحالة التي أجراها، فناً في الملاحظة عن قرب والتفكير

المتأني. كان كل حلم وكل حالم متميزاً عن غيره، إلا أن كل واحد منها قدم بياناتٍ واضحة عن مبدأ أعم وأشمل. ومع ذلك لم يكن لتحليل الأحلام قدرة تنبؤية مثلما كان وضع دراسة الحالة. ولم يكن بمقدور فرويد أن يختبر حياة الشخص ويخبر عن نوع الأحلام التي يمكن أن يراها في المنام. لقد تمت جميع تفسيراته بعد وقوع الحلم. ولعل البرهان الوحيد على أن تفسيرات فرويد كانت صحيحة هو إلى أي حد تبدو قابلة للتصديق. وإذا أخذنا أعمال فرويد على الأحلام وعلى الهفوات الفرويدية وعقدة أوديب ونظرياته عن الجنسية الطفولية المبكرة على وجه الإجمال لوجدنا أنها تشكل رؤية جديدة عن العقل. وفي هذه النظرة تسيطر الرغبات اللاشعورية على أحلام الإنسان والأعراض العصابية وعلى كل خطأ بسيط وتدخل هذه الرغبات بسرعة إلى حياتنا اليومية، ونستطيع أن نقرأها إذا فقط أردنا فعل ذلك. إن مصدر هذه الرغبات هو دافع بيولوجي للتكاثر لا ينضب.

إن التمييز بين العقل والجسد أو الطبيعة والروح الذي عمره عمر الدهر قد أضحى بالنسبة إلى فرويد عديم الفائدة. المهم بالنسبة إليه هو أن اللاشعور يقبع تحت كل فكرة.

ومع انتهاء فرويد من كتابة تفسير الأحلام كان قد حلل شخصيته منذ ثلاثة أعوام تقريباً. لم يمنع هذا التمحيص الدقيق بالذات فرويد من أن يكون عصبياً

ومزاحياً ومكتئباً حينما صدرت أول طبعة للكتاب. أعرب فرويد عن تذمره من تعرض الكتاب للتجاهل ولسوء الفهم. كان قلقاً على أموره المالية ومتحسراً على حقيقة أنه بلغ من العمر 44 عاماً ولم يذع صيته بعد. شعر فرويد بالتعاسة إلا أنه كان يمر أيضاً في حالة انتقالية عميقة فقد كان على وشك افتقاد أبيه الثاني.

بدأ إعجاب فرويد بصديقه فليبس يتضاءل رويداً رويداً، إذ أخذت كتاباته ورسائله بالإقلال والاقتضاب مع الرجل الذي كان يدعوه في يوم من الأيام «ويلهالم الأعز». عوّل فرويد في البداية كثيراً على دعم ونصائح صديقه ومع مرور الوقت أصاب العلاقة القلبية التي تربط بينهما الفتور، ومالت إلى التنافس أكثر. كتب فرويد في مقدمة الطبعة الثانية من كتاب تفسير الأحلام في عام 1908. أما عن «رد فعلي على موت أبي الذي يمثل الحدث الأهم ألا وهو الافتقاد النهائي لحياة رجل». بعد وفاة يعقوب فرويد شكّل فليبس في حياة فرويد الرمز الأول للأب وكما جرى في حالتي بروك وبروير من قبل شعر فرويد بالحاجة سريعاً إلى التمرد وإلى وضع هذا الأب في مكانه الطبيعي.

في شهر أيلول من عام 1951 استطاع فرويد أن يتغلب على أمزجته المتقلبة بسفره إلى روما. كان يحلم طوال حياته بزيارة روما لكنه لم يمتلك أبداً الشجاعة اللازمة لذلك. فمنذ عهد المدرسة وتعلقه بشخص هانيبال مروراً

بما جمعه من تحف وأشياء فنية ورومانية كان فرويد مأخوذاً دائماً بسحر هذا المركز القديم للحضارة. أمضى فرويد شهوراً في دراسة خرائط روما عبر الأعوام وسافر بشكل مطول إلى المناطق الشمالية والوسطى من إيطاليا. أطلق فيما بعد على زيارته الأولى إلى روما اسم «قمة حياتي». أعجب بأعمال ليوناردو دافنشي Leonardo da Vinci ومايكل أنجلو Michel angelo كما زار الفاتيكان والسراديب الرومانية، وهي شبكة ضخمة من الممرات تحت الأرض استخدمها المسيحيون القدماء للعبادة ولدفن الموتى. زار فرويد روما مرات عديدة بعد ذلك خلال حياته، لكن هذه الزيارة الأولى قد تركت عنده أعظم الانطباع. وأخذ يكتسب الشجاعة للسفر والتنقل حيث يشاء وللدفاع عن مهنته العلمية.

وفي أثناء كتابته للدراسات عن الهستيريا ولتفسير الأحلام، كان فرويد إما مهملاً أو متجاهلاً مركزه المهتز في جامعة فيينا. وإذا عدنا إلى عام 1885 وذلك قبل أن يسافر من أجل العمل مع تشاركو، كان فرويد قد منح منصب بريفيتدوزانت Privatdozent وهو ما يقابل مرتبة الأستاذ الجامعي المستجد. ألقى فرويد في حينه محاضرات غير مأجورة في علم الأعصاب وهو تخصصه في الجامعة. وببساطة لم يكن لديه أصدقاء ذوي نفوذ كاف لدفع وضعه المهني قدماً. فيما كان يحتاج الأستاذ الجامعي المستجد وسطياً إلى الانتظار 8 أعوام تقريباً لينال لقب أستاذ فوق العادة فإن فرويد في عام 1951 يكون قد

انتظر 11 عاماً. في عام 1897 وافقت هيئة كلية الطب على ترفيعه بنسبة 22 إلى 10 صوتاً. غير أن الحصول على لقب أستاذ مرشح احتاج إلى موافقة وزارة التربية التي أخفقت في القيام بهذا الدور في حالة فرويد.

لم يعد فرويد راغباً في مساعدة نفسه. ورأى في المنام نفسه عالماً اشتهر بنظرياته الفذة وليس سبب حصوله على الترفيع الجامعي. إلا أن فرويد كان يهودياً في الوقت الذي كان فيه محافظ ڤيينا كارل لوجر Karl Lueger وسياسيون نمساويون بارزون آخرون يناصرون حملة الكراهية ضد اليهود. كما أن نظريات فرويد عن الجنسية والهستيريا، وإعجابه القديم بالكوكائين وحتى مناصرته لتشاركو قد جلبت عليه أعداء. وحينما نصحه أحد أساتذته القدامى لأن يجد من يقدم له الدعم الشخصي بدأ فرويد أخيراً في البحث عن معين.

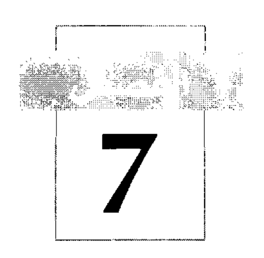
إن قضاء العقد الماضي في معالجة زوجات وبنات وأرامل الطبقة الحاكمة والثرية في ڤيينا قد زوده بسلاح فعال. إذ أقنعت واحدة من مريضاته السابقات وهي البارونة فيرستيل Ferstel وزارة التربية من أجل منح لقب الأستاذية إلى طبيبها المدلل مقابل لوحة فنية من معرضها الخاص قدمتها للوزارة.

ومع ترقية فرويد إلى منصب أستاذ جامعي فوق العادة، أخذت مكانته بالصعود، وكانت الترقية عبارة عن التصويت على الثقة من أجل فرويد من قبل كلية الطب،

فأصبح قادراً على رفع رسوم العلاج الذي يقدمه.

وبعد انتهاء المحنة، ندب فرويد حظه قائلاً، «لو أنني تخطيت هذه الخطوات منذ ثلاثة أعوام، لكنت قد تعينت قبل ثلاثة أعوام ولكن قد وفرت على نفسي الكثير، أما الآخرون فهم أذكياء مثلي تماماً من غير حاجة للذهاب إلى روما أولاً».

احتاج فرويد بعض الوقت للتغلب على عزة النفس التي منعته من طلب المساعدة من أصدقائه. وفي السنوات اللاحقة تحالفت شجاعته مع ذرائعيته السياسية في تأمين البقاء على قيد الحياة لأفكاره ولحركة التحليل النفسي.



7

التفاعلات

عندما نشر فرويد كتابه ثلاث مقالات في نظرية الجنسية في عام 1905، لم يعد متردداً في نظرياته، أو في أهميته، أو في الترويج لنفسه وكان قد نشر من قبل كتاب تفسير الأحلام كما حصل على مكانة الأستاذية في الجامعة. ساعدته هذه الإنجازات على تجاوز المحنة اللاحقة ألا وهي انهيار العلاقة بينه وبين ويلهالم فلييس.

تغيرت العلاقة بين فرويد وفلييس منذ عام 1897 عندما شرع فرويد في إنشاء نظرية نفسية للأحلام بينما بقي فلييس عالم أحياء محافظ. احتدم الخلاف بينهما عندما تقابلا في صيف عام 1900. إذ اقترح فلييس أن هناك عمليات دورية ـ أحداث بيولوجية تجري على شكل دورات مثل دورة الحيض ـ تؤثر على العقل وعلى وجه



فرويد مع زوجته وأمه أثناء إجازة الصيف في منتجع جبلي في عام 1905. كان لأم فرويد حضوراً قوياً ونشطاً في منزل فرويد خلال حياتها.

التحديد، قال أنه لا بد لهذه الدورية الحيوية من أن تؤثر على مسيرة المرض النفسي بما في ذلك الأمراض التي كان يعالجها فرويد بواسطة علاجه التحليلي النفسي.

احتج فرويد، المشدوه والمنزعج، على فلييس أنه حاول تقويض أهمية كل أعماله. إذ ما فائدة العلاج إذا كان المرض خاضع لساعة داخلية؟

ورداً على فرويد اتهم فلييس المذهول فرويد بوضع أفكاره الخاصة في عقول مرضاه.

وخلال تلك الزيارة الصيفية المقيتة، علّق فرويد أيضاً قائلاً بأنه لا يمكن حل العُصابات إلا بنظرية مستمدة من الجنسية الثنائية عند كل شخص. اعترض فلييس على ذلك لكونه قال الشيء ذاته منذ عامين ونصف العام حينما رفض فرويد تصديق ذلك.

وبعد فترة قصيرة من هذا اللقاء، بدأت العلاقة بين فرويد وفلييس بالانحلال. بدا فرويد وكأنه يستغل فلييس فتارة يرفض أفكاره وتارة أخرى يتبناها وفقاً لمزاجه. حاول فرويد في البداية أن يستعيد صداقته مع فلييس وذلك بعرضه عليه المشاركة في تأليف كتاب بعنوان الجنسية الثنائية عند الإنسان، إلا أن فلييس رفض العرض وتوقف الاثنان عن تبادل الرسائل قبيل عام 1902. وفي عام 1903 نشر أحد زملاء فرويد الشباب ويدعى أوتو وينغر Otto Weininger كتاباً عنوانه الجنس والشخصية، والذي سرق بشكل فاضح كثيراً من أفكار فلييس عن

الجنسية الثنائية. وسرعان ما اكتشف فلييس أن فرويد له يد في هذه الجريمة. أنكر فرويد هذه الاتهامات في بادئ الأمر، وبعدئذ ادعى أن هناك الكثير من المؤلفين الذين كتبوا عن الجنسية الثنائية قبل فلييس. ومع ظهور كتاب آخر - والأغلب أنه منتحل - لأحد أصدقاء وينئغر ويدعى هيرمان سوبودا Herman Swoboda والذي بحث الفترات الحيوية وهي 23 يوماً و28 يوماً، انقطعت العلاقة بين فرويد وفلييس نهائياً. من المستغرب أن تنتهي العلاقة بين فرويد وفلييس بهذه الطريقة مع العلم أن فرويد ذاته كان ضحية لنفس النوع من اللصوصية العلمية عندما كان شاباً والمتعلقة بالخصائص التحذيرية للكوكائين. وبذلك يكون فرويد قد هاجم فلييس بأعتى سلاح كان قد تعرض له فرويد في حياته. لم يعد فرويد خائفاً حقاً من قدرته، حتى من قدرته على إيذاء أصدقائه.

في عام 1902 اقترح طبيب شاب يدعى ويلهالم ستيكل Wilhelm Stekel على فرويد أن يلتقي أسبوعياً مع ممارسين آخرين من المهتمين بالتحليل النفسي. هذه الجماعة التي اسمها جمعية الأربعاء النفسية، قَدِمت أخيراً إلى فرويد متحمسة لسماع أفكاره. في كل أسبوع كانت الجماعة تستمع إلى ورقة بحث أعدها أحد الأعضاء، وتأكل الحلويات، وتدخن السجائر وتتناقش في الموضوع المعروض أمام أعضائها. أما فرويد، الذي يعد الأب المؤسس للتحليل النفسي، فقد كانت له دائماً الكلمة الأخيرة.

جلب الأعضاء أفراداً جُدُد للانضمام إلى الجماعة مما أدى إلى ازدهار الجمعية. ومع حلول عام 1906 أصبح هناك 17 عضواً وحوالي 12 شخصاً يحضرون في كل اجتماع. وفي شهر تشرين الأول وظفت الجمعية أوتو رانك Otto Rank، وهو باحث في علم النفس تعلم علم النفس ذاتياً وكان صديقاً مقرباً من فرويد، من أجل تسجيل الملاحظات أثناء الاجتماعات وبقدوم عام 1907 تحولت الجمعية إلى مجزرة. إذ أخذ الأعضاء يتنافسون فيما بينهم من أجل الحصول على اهتمام فرويد كما أخذوا يتخوفون من بعضهم البعض على ملكية الأفكار ويهينون أعمال بعضهم البعض إلى درجة أصبح الكتّاب يشبهونهم بعائلة الأولاد الذين يتسابقون على اكتساب محبة أبيهم. خاب أمل فرويد بأتباعه كما عَقَّبَ أحد الزائرين الألمان تعقيباً فيه إشفاق حينما قال إن السمعة التي اكتسبها فرويد بسبب تلك النظريات الغريبة جعلت عدداً قليلاً فقط من الأطباء المحترمين يحضرون اجتماعاته.

وفي عام 1908 تمت إعادة تنظيم جماعة فرويد باسم جديد هو جمعية ڤيينا للتحليل النفسي.

ومع ازدحام المؤيدين المحيطين بفرويد، بدأ بصياغة أكثر نظرياته إثارة للجدل ألا وهي نظرية الجنسية الطفولية.

لم يكن فرويد أول مؤلف يكتب عن موضوع الجنسية أو حتى أول كاتب يتحدث عن الدوافع الجنسية الطفولية.

إذ نشر العديد من الأطباء مناقشات من العلاقة بين مص الأصبع والتدرب على استخدام المرحاض، ونمو الشخصية عند الأطفال. إلا أن فرويد كان مستعداً لتقديم نظرية كاملة عن النمو الجنسي.

وفي الطبعة الأولى من كتاب تفسير الأحلام علّق فرويد قائلاً: «إننا نقدر تقديراً عالياً السعادة عند الأطفال لأنها لا تزال بريئة من الرغبات الجنسية». وبعد خمس سنوات وفي كتابه ثلاث مقالات عن نظرية الجنسية عدَّل فرويد ذلك التصريح مدعياً بأنه يصح فقط حينما يكون الأطفال في مرحلة الكمون

ذكر فرويد ثلاثة مراحل للنمو الجنسي: مرحلة النشاط الجنسي من الولادة وحتى سن الخامسة، ومرحلة الكمون من سن الخامسة وحتى البلوغ، وفيها ينسى الأطفال ويتجاهلون المشاعر الجنسية ومرحلة البلوغ الجنسي.

لم يفترض في الجنسية الطفولية المبكرة أن تكون مطابقة للجنسية البالغة. ووفقاً لما يراه فرويد، يجد الأطفال لذة جنسية في كثير من النشاطات من مثل مص الأصبع وحينما يربتون ويلمسون أجسامهم.

وحينما يحتفظون أو يخرجون البراز حينما يمارسون الاستنماء. بما أنه باستطاعة الأطفال أن يحصلوا على المتعة الجنسية بطرائق كثيرة جداً، ادعى فرويد أنهم منحرفون بأشكال متعددة، وهذا يعني أن هناك إمكانية لكل أنواع الانحرافات الممكنة عن كل طفل. استخدم

فرويد كلمة الانحراف ليعرف سلوك البحث عن المتعة أو اللذة في الأشياء أو الحيوانات عوضاً عن شركاء من بني البشر، والشعور بالرغبة تجاه أي شيء آخر غير الجماع الجنسي الطبيعي. اعتقد فرويد إمكانية حدوث مثل هذه الانحرافات عند الكبار في ظل ظروف خاصة، تتضمن مثل هذه الممارسات الاستعراضية (عرض العضو التناسلي أمام مشاهد) الشيئية (الحصول على المتعة الجنسية عن طريق الأشياء من مثل الأحذية)، والماسوشية (الحصول على المتعة الجنسية عن طريق الشعور بالألم أو التعرض للاضطهاد).

اعتقد فرويد أن الأطفال يمرون من خلال مراحل متعددة حيث تتركز المشاعر الجنسية عندهم على أجزاء معينة من الجسم. أما المرحلة الأولى فهي مرحلة التلذذ الذاتي auto erotic فالأطفال يحصلون على الشعور بالرضى بشكل عام عندما يمارسون المص بدايةً. ومع ذلك يمكن لأي جزء من أجزاء الجسم أن يحدث لذة جنسية، هذه هي المرحلة الشفوية. وخلال المرحلة التالية التي تحدث عادة في حوالي نفس الوقت الذي يتعلم فيه الطفل على استخدام المرحاض، إذ يجعل الأطفال على المتعة الجنسية من منطقة الإست (الشرج) ومن الاحتفاظ بالبراز داخل الأمعاء. وأخيراً وبعد المرحلة الإستية ينتقل مصدر المتعة الرئيسي عند الأطفال إلى الأعضاء التناسلية حيث تبقى كذلك مدى حياتهم. وخلال مرحلة الكمون، يحصل عند الأطفال «فقد للذاكرة» المتعلقة بنموهم

الجنسي السابق. وبدلاً من أن يكتشفوا أجسامهم يصعد هؤلاء الأطفال الذين هم في عمر المدرسة أو يعيدوا توجيه طاقتهم الجنسية إلى نشاطات أخرى من مثل النشاطات المدرسية والترفيهية.

وخلال العقد اللاحق، توصل فرويد إلى تعريف الفروق بين الهستيريا والاستحواذ بلغة هذه المراحل الجنسية الطفولية المبكرة. فقد اعتقد فرويد أن الأشخاص الوسواسيون ينتكسون إلى المرحلة الإستية، وذلك عندما يبدأ الطفل بالتعبير عن الغضب والحاجة إلى السيطرة. بينما ينتكس الأشخاص الهستيريون من ناحية أخرى إلى الحب السابق للأشياء يكون عادة الآباء، ويرفضون الجنسية البالغة بمجملها. في كتابه (ثلاث مقالات)، وصف فرويد النمو الجنسي عند المراهق. ففي فترة البلوغ ينتقل تركيز الطاقة الجنسية أو الليبيدو، من الذات إلى الآخرين.

يود المراهق في هذه المرحلة أن يشرك أشخاص آخرين في نشاطه الجنسي. يتخيل المراهقون في البداية أشياء ذات صلة بدوافعهم الجنسية وتُنشِّط هذه الحياة الحالمة الصلات الجنسية القديمة مع الآباء. ولكي يتجاوز المراهق هذه المرحلة يتوجب عليه أن يتحرر من سلطة الآباء. ينتقل تركيز الدوافع الجنسية عند البالغين إلى الأعضاء التناسلية بينما تحدث النشاطات الجنسية ذات الصلة بمناطق أخرى من الجسم على شكل مشاعر ما قبل

اللذة. تحث مشاعر ما قبل اللذة هذه البالغ لأن يواصل نشاطه إلى ذروة اللذة في النشوة. لقد بيّن فرويد حدوث مشاعر ذروة اللذة هذه عند البلوغ فقط. أثار كتاب فرويد (ثلاث مقالات) المشكلات لعدة أسباب، إذ لم يقدم مطلقاً تعريفاً للذة أو الإثارة. كما كان الكتاب مليئاً بالأفكار المنحازة السائدة عن جنسية المرأة، إذ بينما يحصل الرجال ببساطة على اللذة من أعضائهم التناسلية، تضطر النساء إلى كبت مشاعرهن الجنسية عن طريق نقل مركز اللذة من المنطقة الجنسية (الذكرية) الطفولية لعضو الحبس الخارجي وهو (البظر) إلى عضو الجنس الداخلي وهو المهبل. إن هذا المطلب وهو أن تضحي النساء بأهم مصدر للذرة الجنسية البالغة قد أضر بكل من النساء والمعالجين النفسيين منذ أن فكر بها فرويد أول مرة. ويحتاج النساء وفقاً لما رآه فرويد، أن يمروا بمراحل أكثر من المراحل التي يمر بها الرجال ليصلوا إلى مرحلة النضج، وهذه فكرة عزاها بعض مترجمي السير الذاتية إلى النمط الڤيكتوري للنساء الضعيفات، اللاتي يفتقرن إلى العقلانية ويحتجن إلى من يحكمهن.

على الرغم من تصريح فرويد في كتابه ثلاث مقالات أن الجماع الجنسي الطبيعي مع الشريك المحبوب هو أقصى غاية للجنس، إلا أنه لم يخطر على باله أن الزواج أو العلاقة القائمة مع شريك واحد ضروريان للصحة النفسية. إذ كان يفضل الزواج الجنسي الحر للشبان والشابات وكان يشعر بالإحباط لعدم وجود وسائل منع

حمل فعالة. ومع ذلك في منزل فرويد حيث توقف التحليل النفسي عند عتبة الباب، كما قال فرويد، فقد كان لنظرياته الأثر القليل على حياته المنزلية. فقد وبخ ابنه على ممارسته الاستنماء وأغلب الظن أنه بقي مخلصاً لزوجته، لكنه لاحظ ظهور نفس الأشكال الطفيفة للهستيريا والعصاب عند أسرته مثلهم مثل أي شخص آخر.

ولعل الشخص الوحيد في أسرة فرويد الذي تأثر بنظرياته بشكل عميق هو ابنته الصغرى أنَّا التي أصبحت فيما بعد محللة نفسية.

وفي تلك الأثناء، كان فرويد يتعلم من مرضاه في العيادة. وكان أشهر ثلاثة مرضى عنده في تلك الفترة هم دورا Dora كانت هستيرية، ورجل الجرذ Rat Man كان وسواسياً، هانز الصغير Little Hans كان صبياً يبلغ الخامسة من العمر ويعاني من خوف بشكل الحركة يسمى الفوبيا. صورت دراسات الحالة هذه كيف كان فرويد يفكر بمرضاه وكيف سار في معالجتهم. ومع قدوم القرن الجديد لم يعد فرويد يضغط على جباه مرضاه يَحُضُّهم على التذكر بل أصبح يجلس على كرسي خلف السرير الذي يستلقي عليه مرضاه باسترخاء ليمارسوا التداعي الحر. كان هذا الأسلوب نافعاً جداً، فقد كان بمقدور مرضى فرويد أن يتحدثوا بحرية من غير أن يروا ردود أفعاله.

كذلك اعترف فرويد قائلاً «لا أستطيع أن أبقى والآخرون يحدقون بي طوال ثماني ساعات أو أكثر في اليوم» كان فرويد يعتقد أنه لا يجوز أبداً للمحللين النفسيين أن يسجلوا ملاحظاتهم أثناء انعقاد جلسات التحليل النفسي. إذ يحتاج المحلل أن يركز مجمل انتباهه على مرضاه ليجمع كل المعلومات عن عقول مرضاه ابتداءً من الأعراض إلى الأحلام إلى الأخطاء الإملائية في رسائلهم.

السرير في مكتب فرويد حيث كان يرتاح عليه مرضاه ويخبرونه بأعمق أفكارهم. بينما يجلس فرويد بعيداً عن مرأى المريض.



في عام 1905 نشر فرويد تاريخ حالةٍ كان قد دوَّنها منذ خمسة أعوام، تدعى «مقتطفات من تحليل لحالة هستيريا». فقد حلل فرويد حالة امرأة شابة أسماها دورا، وهي إيدا بوير Ida Bauer البالغة 18 عاماً، التي عانت من أعراض هستيرية شائعة من مثل الشقيقة والتهاب الحنجرة وسعال عصبي. كان فرويد في تلك الأثناء مهتماً جداً باستعراض نظرياته عن الهستيريا وعن رموز الحلم على مريض حقيقي في أوج مرضه. وبدت دورا كمرشح مناسب جداً لذلك.

شرحت دورا بسرعة كيف آلت حالتها إلى وضع يرثى له. فقد أمضت والدتها حياتها وهي تنظف على نحو وسواسي المنزل، منشغلة بذلك عن كل من زوجها وابنتها. وحينما بلغت دورا 16 عاماً قام أحد أصدقاء العائلة القدامى ويدعى السيد ك Mr. K بممارسة التحرش الجنسي مع دورا. وجهت دورا المصدومة والرافضة لطمة إلى وجهه. وحينما أخبرت أباها بما جرى آثر أن يصدق كلام السيد ك على كلامها معتبراً إياها مجرد مراهقة يملأ عقلها الهواجس الجنسية. لم يتخذ فرويد موقفاً من أحد حينما أخبرته دورا القصة لأول مرة، لكنه اكتشف بسرعة أن والد دورا كان عل علاقة غير مشروعة مع زوجة السيد ك. وكان بين دورا والسيدة ك صداقة حميمة وكانت السيدة ك المكان الذي تضع فيه دورا سرها. وكانت دورا قد نامت مع السيدة ك في سرير واحد عندما ذهبت الأسرتين لقضاء الإجازة معاً. تحدثت دورا عن «جسم

السيدة ك الأبيض الفاتن» خلال عملية التحليل. زد على ذلك أن السيد ك كان قد اعتدى على دورا أكثر من مرة واحدة. فعندما كان عمرها 14 عاماً أمسك بها السيد ك في مكتبه وأخذ يقبلها من شفتيها بحرارة. وكان طبيعياً أن تشمئز الفتاة الصغيرة من السلوك الماجن لرجل كبير في السن - أو ليس كذلك؟

لم يستطع فرويد أن يتقبل اشمئزاز دورا. فقد كان دائماً مناهضاً للأخلاق الاجتماعية عند الطبقة المتوسطة وأصر أن دورا قد أحست بالإثارة الجنسية عندما اعتدى عليها السيد ك.

ليس هذا النوع من الرغبة المستترة مستحيلاً. إلا أنه ليس أيضاً الشيء الذي كانت تصفه إلى فرويد. لقد كانت دورا، التي تعرضت للاعتداء من قبل صديق وللخذلان من أبيها، كالشيء المتطاير على غير هدى في عالم لا يرحم. وسرعان ما انضم فرويد إلى ذلك العالم.

وازدادت دورا رهقاً من مقاومة فرويد لإفادتها وغادرت فجأة بعد 11 شهراً من التحليل. لقد رفضت فرويد في نفس الطريقة التي رفضت بها السيد ك.

لقد كانت حالة دورا هامة ليس فقط لأن فرويد، الذي اعتاد أن يكون حريصاً وأن يصغي باهتمام، قد أخفق في فهم مشاعر دورا عن حياتها بل لأن حالتها قد أظهرت لفرويد مخاطر آليتي الإنقال Transference والإنقال المعاكس counter transference. في مصطلحات التحليل

النفسي يحدث الإنقال عندما ينقل المرضى مشاعرهم من موقف آخر في الحياة إلى علاقتهم مع محللهم النفسي. عادت دورا إلى عيادة فرويد مرة واحدة في عام 1902 واعترفت أنها قد أسقطت في الأساس سخطها من السيد ك على فرويد. وفي المقابل يحدث الإنقال المعاكس عندما يسقط المحللون النفسيون عواطفهم التي يحتفظون بها من الماضي على مرضاهم.

في أية عملية تحليل نفسي لا بد من أن ينجم عنها كلاً من آلية الإنقال وآلية الإنقال المعاكس وإذا تم التعرف عليهما فمن الممكن أن تساعدا كلا الفريقين في اكتشاف الرغبات اللاشعورية عند المريض. لم يعترف فرويد بأنه قد حصل عنده إنقال معاكس في علاقته مع دورا، ولم يبدأ في استخدام هذه الكلمة إلا في عام 1910، كما لم يكن يعرف أن عدم الشعور بحدوث الإنقال المعاكس يمكن أن يحرف التحليل النفسي عن طريقه الأصلي، لأنه يقضي على حياد المحلل النفسي.

لم يكن واضحاً السبب الذي دفع إلى حدوث هذا النوع القوي والعدواني من الإنقال المعاكس عند فرويد تجاه دورا. رأى بعض الكُتّاب أنه قد حصل من ناحية فرويد ذاته توحد في الحال مع السيدات، الذي يمثل المعتدي الذكري. وفي الوقت الذي كان فرويد يكتب فيه المقتطفات كان يفقد صلته مع فلييس وهو الرجل الذي أكد على وجود الجنسية الثنائية عند الإنسان والذي تذكره

فرويد فيما بعد على أنه الرجل الذي أعطاه شحنة جنسية مثلية.

وفي حالة دورا كتب فرويد ملحوظة في أسفل كتاب المقتطفات قال فيها:

«لقد أخفقت في اكتشاف وإعلام المريضة في الوقت المناسب أن حبها. . . الجنسي المثلي للسيدة ك كان التيار اللاشعوري الأقوى في حياتها النفسية».

في الوقت الذي لم يكن فرويد فيه مهتماً بالجانب الأنثوي من الحياة، كان يرفض فكرة انجذابه نحو فليس ويتجاهل رغبة دورا الجنسية في السيدة ك (التي كانت قد رفضت من قبل السيد ك الذي تحرش بها).

في عام 1904 تعرف فرويد على طبيب نفسي سويسري يبلغ من العمر 30 عاماً والذي أرسل له بحثاً عن تطبيقات الأفكار الفرويدية على الفصام الذي هو مرض عقلي يفقد فيه المرضى صلتهم بالواقع ويشيع عندهم سماع الأصوات. أُعجب فرويد بهذا البحث وبدأ على الفور بمراسلة زميله الجديد الدكتور كارل غوستاف يونغ Carl Gustav Jung. عمل يونغ في عيادة للطب النفسي في جامعة زيورخ في سويسرا مع يوجين بلولر Eugene Blueler الباحث في الطب النفسي الذي صاغ مصطلح الفصام schizophrenia.

ومن رسائلهما الأولى المبكرة كان يُشمّ منها رائحة بذور الخلاف بين فرويد ويونغ. ففي التمهيد للبحث

Prof. Dr. Freud — IX., Berggasse 19. — 11.4.06

في عام 1904 بدأ فرويد يتبادل الرسائل على الأمد الطويل مع الطبيب السويسري كارل يونغ الذي كان قد بدأ باستخدام أفكار فرويد في معالجته لمرضى الفصام.

الذي أرسله إلى فرويد، ذكر يونغ أنه لا يعتقد أن الرضى الجنسي الطفولي هو السبب الوحيد للمرض النفسي وهذا تعارض مباشر مع موقف فرويد. ومع ذلك كان يونغ محط إعجاب فرويد. فقد كانت تنتظر يونغ حياة مهنية ذاخرة، إذ كان أكثر ذكاء من معظم أتباع فرويد في ڤيينا وربما الأهم من ذلك هو أنه لم يكن نمساوياً ولم يكن يهودياً. بين عامي 1906 و1910 بدأ فرويد يقطف ثمار

سمعته العالمية وشرع أجانب من أمثال الإنكليزي إرنست جونز Ernest Junes والهنغاري ساندور فيرينتشي S'andor Ferenczi بالانضمام إلى حلقته. ومع ذلك شعر فرويد أن يونغ ويونغ وحده يمكنه أن يسير بحركة التحليل النفسي قُدماً. فقد أراد فرويد بكل ما أوتي من قوة أن ينشر أفكار التحليل النفسي خارج نطاق عصبته التي تضم في غالبيتها يهود ڤيينا. وإلا شعر، أن كل أعماله سوف تذهب سدى ويتم تجاهلها ونسيانها عندما تصطدم بالنزعة ضد السامية. ومن يستطيع أن ينشر أفكار فرويد على أفضل وجه غير يونغ صاحب القامة الطويلة والعينين الزرقاوتين ابن القس المسيحي؟ أضحى يونغ ولياً لعهد فرويد، كما أصبح بديلاً جزئياً عن فلييس يحكم بصلابة فرويد وبرقة يونغ العاطفية.

لم يلتق فرويد ويونغ شخصياً حتى عام 1907 وهو العام الذي أجرى فيه فرويد تحليلاً نفسياً لأشهر حالة وسواس اصطلح عليها باسم رجل الجرذ Rat Man حينما جاء هذا المريض وهو محامي يبلغ من العمر 29 عاماً إلى عيادة فرويد كان عقله ممتلئاً بالخوف من أن مأساة ستصيب والده أو المرأة التي كان يتودد إليها أو أنه سوف يقتل شخصاً ما أو سيذبح نفسه، وجاء أخيراً إلى عيادة فرويد بسبب إحساسه بالرعب من قصة كان قد سمعها مؤخراً أثناء خضوعه للتدريب العسكري. واستناداً لما قاله النقيب أمر القضاء في بلد غير محددة في الشرق باستخدام شكل مريع من أشكال التعذيب ضد المجرمين.

يتم تقييد المجرم أرضاً ليوضع على مؤخرته جرذاً كبيراً ضمن وعاء.

وبتحريض الجرذ بواسطة مسعر حراري أحمر يبدأ بالقضم باتجاه الشرج، قاطع فرويد المريض عند تلك الفكرة، فبدت على وجه المريض نظرة مشوشة بين اللذة والقرف.

كان المفتاح لتحليل فرويد هو الكلمة الألمانية المقابلة للجرذ Ratte. وكما يحدث في الأحلام يقوم اللاشعور باستخدام التوريات مع الكلمات الحساسة. وفي هذه الحالة ربط المريض كلمة Ratte مع كلمة ألمانية أخرى heiraten وتعني أن يتزوج ومع كلمة ألمانية ثالثة Spielratte وتعني الجرذ المقامر في إشارة إلى ديون أبيه الناجمة عن تعاطي الميسر في شبابه.

عندما مارس رجل الجرذ الجماع الجنسي لأول مرة كان يفكر «هذا شيء عظيم! إنني على استعداد لأني أضحي بوالدي من أجل هذا!» ومن خلال عملية التحليل النفسي اعترف رجل الجرذ أنه حينما كان بين الثالثة والرابعة من العمر قام والده بضربه ضرباً موجعاً لممارسته الاستنماء. فسب أبيه بحماسة وبكل الكلمات التي أمكن لعقله الصغير أن يجمعها قائلاً «أيها المنشفة! أيها الطبق!» لأنه لم يكن يعرف الشتائم حينئذ. رأى رجل الجرذ أباه قد تدخل في حياته الجنسية وما قصة التعذيب بواسطة الجرذ إلا لتُحضر إلى عقله حالة الصراع بين عاطفتي

الحب والكراهية نحو أبيه. وحالما فهم رجل الجرذ هذا التفسير اختفت أعراضه الوسواسية.

والحالة الأخرى الشهيرة عند فرويد في تلك الفترة كانت نوعاً مختلفاً من المرضى. كان هانز الصغير مصاباً بالرهاب مشلولاً من الخوف وكان يبلغ خمسة أعوام من العمر. لم يقابل فرويد في البداية الطفل مباشرة، وكل المعلومات التي كان يحصل عليها فرويد كانت تأتيه عن طريق ماكس غراف Max Graf والد الطفل وعضو في جمعية الأربعاء النفسية. حاولت عائلة غراف أن تنشئ طفلها تنشئة بعيدة عن التحيز الجنسي المعتاد لكن الذي حصل هو مثل ما حصل مع عائلة فرويد وهو أنهم ارتكبوا نفس الممارسات النمطية في تربية الأولاد في ذلك الزمن. وحينما أصبح للسيدة غراف طفلاً ثانياً، فسرت عائلة غراف هذا الحدث على أن لقلقاً قد زارهم، وهي قصة لم يصدقها هانز الولد الذكي لدقيقة واحدة.

أحضر غراف والده هانز إلى عيادة فرويد بعد أن ظهر عنده خوف من أن الخيول سوف تعضه. وكانت هذه مشكلة عسيرة بالنسبة لطفل يعيش في ڤيينا قبل مرحلة إنتاج السيارات على مستوى الجماهير.

إذ كانت هذه الوحوش المرعبة بالنسبة إلى هانز تجوب كل شارع. وبدأ خوف هانز ينتشر من الخيول إلى جميع الحيوانات الكبيرة، وبذلك، بقيت الحيوانات الصغيرة مسالمة بالنسبة له. كما أخذ اهتمام هانز

بالأعضاء الجنسية يزداد باستمرار وظن والده أن هذا الصبي يخشى ربما من القضيب الذكري الكبير عند الحيوانات الكبيرة. ناقش ماكس غراف هذا الموضوع مع هانز مبيناً له أن للحيوان الكبير قضيباً كبيراً مثلما أن للحيوان الصغير قضيباً صغيراً. وكان رد هانز على ما قد سمع مثال بديع على التفكير الطفولي «وكل الناس عندهم فرفورة wi-wi-maker [وهي كلمة هانز المراد بها القضيب الذكري]. وسوف تكبر فرفورتي معي حينما أصبح كبيراً. أي أنها ستبقى ملتصقة بي». إن عبارة هانز بأن جميع الناس لديهم قضيب (من غير اعتبار لجنس الشخص) هو أمر مثير للدهشة، لكن فرويد رأى معنى أعمق من ذلك.

إذ أن إعلان هانز الصريح أن قضيبه مرتبط به يظهر قلقه من احتمال تعرض قضيبه للفصل أو الفقدان، اعتقد فرويد أن هانز يعاني من قلق الخصي. من الذي يريد أن يخصي هانز الصغير المسكين؟ يتوقف الجواب مرة أخرى على الرمز الذي يقدمه العقل اللاشعوري عند هانز. كان لوالد هانز شارباً أسوداً كبيراً بدا لهانز وكأنه كماحة حصان أسود كبير. وفي عمر الخامسة كان هانز في منتصف مرحلة عقدة أوديب، إذ كان يحب أمه ويتمنى موت أبيه لكي لا يشاطره فيها، وإذا علم أبيه بهذه الأمنية فسوف يقطع قضيبه. وفي النهاية سيطر هانز على مخاوفه عن طريق حيلة يحافظ بها على كل من أمه وأبيه. إذ يمكن لهانز أن يتزوج أمه ويمكن لوالد هانز أن يتزوج أمه هو الآخر.

تعافى هانز من الرُهاب ليصبح مديراً ناجحاً لدار الأوبرا. وعندما زار فرويد في عام 1922 قرأ دراسة حالته الخاصة وعلق عليها بأنه لم يتذكر العلاج على الإطلاق. فقد كانت قراءته لها، كما قال مثل قراءته لحالة شخص غريب. من الواضح أن صراع هانز قد تراجع إلى اللاشعور وهو المكان الذي ينتمي إليه.

تأثرت تحليلات فرويد لهذه الحالات الثلاثة بنظرته عن الذكورة والأنوثة. إذ أن دورا مَثَلُ جميع النساء، يفترض فيها أن تمتثل لسلطة الرجل، وأن تتقبل بخنوع التحرش الجنسي للسيد ك.

وفي المقابل يتوجب على الرجال أن يتخلوا عن ميولهم الأنثوية أو الجنسية المثلية وأن يتحرروا من سلطة أبيهم على الرغم من رغبتهم في اكتساب محبته. بقي فرويد مكافحاً عن هذه القضايا في نظرياته وفي علاقاته الخاصة مع مريديه حتى نهاية الحرب العالمية الأولى.



في شهر أيلول من عام 1909، زيارة فرويد (الذي يقف في الصف الأمامي، الخامس من اليسار) الأولى والوحيدة إلى الولايات المتحدة بناء على دعوة من جامعة كلارك في ورسستر بولاية ماساشوستس. ألقى هناك سلسلة من المحاضرات ويُرى في هذه الصورة مع أعضاء قسم علم النفس في جامعة كلارك.

8

الواقـــع

مع حلول عام 1909 أصبح هناك طلب على أعمال فرويد. ففي العام السابق كان فرويد قد نشر مقالات عن الجنسية الثنائية والهستيريا والنمو الجنسي عند الأطفال وأثر الأخلاقيات الجنسية عند الطبقة الاجتماعية المتوسطة على المرض النفسي.

وكانت جمعية ڤيينا للتحليل النفسي بازدهار مستمر. وأصبح لدى فرويد الآن المال لجمع التحف والسجاد والمنحوتات عن الحضارات القديمة. قال هانز ساتش Hanns Sachs صديق وزميل فرويد، «أضحت عبارة فرويد تذكره لا بعيادة طبيب وإنما بموقع دراسة لعالم آثار».

أخذ صيت فرويد يذيع حتى وصل إلى الولايات

المتحدة. ففي عام 1909 وجه جي ستانلي هول، رئيسي جامعة كلارك في ورسستر بولاية ماساشوستس دعوة إلى فرويد لإلقاء سلسلة محاضرات هناك. لقد سمع عن فرويد من باحث زائر كان يعمل في نفس المشفى السويسري الذي عمل به يونغ.

كان هول مبتهجاً بأفكار فرويد المثيرة للفضائح الجنسية واقتبس أفكار فرويد في كتابه عن المراهقة مما أثار الكثير من حنق المراجعين له. كما وجه هول دعوة إلى يونغ، الذي كان يعتبر خبيراً مشهوراً في الفصام. وأخيراً ذهب أيضاً ساندور فيرينتشي، أحد الحضور المنتظمين في جمعية ڤيينا للتحليل النفسي وصديق عزيز لفرويد.

في البداية، لم يكن فرويد سعيداً جداً بالذهاب إلى هناك. إذ اعتبر أن الأمريكيين محتشمون تجاه الموضوع الجنسي وأيديهم مغلولة إلى أعناقهم خشية الإنفاق ومع ذلك عندما رفع هول قيمة تعويضات سفر فرويد قرر فرويد القيام بهذه الرحلة. وفي طريقه إلى الولايات المتحدة، تناول فرويد ويونغ وفيرينتشي وجبة الغداء معاً في ميناء بريمن الألماني قبل الصعود على ظهر السفينة. لم يستطع يونغ التوقف عن الحديث عن الحفر بحثاً عن الآثار.

تنبه فرويد إلى ذلك معتبراً حديث يونغ الوسواسي من جانب واحد حول العظام الميتة والقديمة دليلاً على تمني

يونغ الموت له، فشعر فرويد بالإنهاك، إلا أن بقية الرحلة سارت على ما يرام. اشتكى فرويد من أن الطعام الأمريكي يسبب له مغصاً في معدته، لكنه استطاع أن يجتمع مع وليام جيمس William James وجيمس بوتنام James Putnam فالأول أستاذ علم النفس والثاني أستاذ علم الأعصاب في جامعة هارڤارد. كان جيمس، وهو مؤلف كتاب أنواع الخبرة الدينية، قد أزعجه رفض فرويد الصريح للدين. أما بوتنام، من ناحية أخرى، الذي عمل في مشفى ماساشوستس العام معالجاً الأشخاص الهستيريين فقد أقنعه لقاءه وحديثه مع فرويد أن التحليل النفسي هو العلاج الأفضل للمرضى الهستيريين. وكان ذلك بداية لهيمنة طريقة فرويد على الطب النفسي الأمريكي.

لقي فرويد ترحيباً كبيراً في الولايات المتحدة، وحينما عاد إلى ڤيينا وجد نفسه أمام حرب مفتوحة. التقى فرويد بعدد كير من أتباعه في نيوريمبرغ Nuremberg في ألمانيا في ربيع عام 1910 وأراد فرويد حينها أن يضمن انتشار أفكار التحليل النفسي في أنحاء العالم، تحت إشراف وتوجيه يونغ، لكنه أراد أيضاً أن يتجنب إقصاء أنصاره في ڤيينا. ففي مؤتمر نيوريمبرغ جعل فرويد فيرنيتشي يقترح إحداث جمعية التحليل النفسى الدولية إضافة إلى جمعية ڤيينا للتحليل النفسى. وأن يكون الرئيس الدائم للمنظمة الجديدة.

أثار ذلك سخط أنصار التحليل النفسي في ڤيينا مثلما يحدث مع الطفل الذي تُقدم هدية رائعة إلى شقيقه الأصغر الذي يغار منه. وأخيراً، وبعد أن توصل فرويد شخصياً من جماعة ڤيينا لإنقاذ التحليل النفسي عن طريق توظيف المزيد من الأميين (غير اليهود)، اتفق فرويد وأتباعه على المساومة.

اقتضت هذه المساومة على أن يرأس يونغ الجمعية الدولية وأن يرأس ألفريد أدلر Alfred Adler، وهو من أهالي ڤيينا وعضو أصيل في جمعية الأربعاء النفسية، جمعية ڤيينا للتحليل النفسى بدلاً من فرويد. لم تدم الهدنة طويلاً ففي منشور لاحق بعنوان الحضارة ومنغصاتها Civilization and its Discontents اقتبس فرويد من مؤلف ألماني يدعى هينريتش هين Heinrich Heine الذي كتب «على المرء... أن يسامح أعداءه.. ولكن ليس قبل أن يتم شنقهم». كانت لألفرد أدلر نظرياته الخاصة عن العصاب التي تعارضت بشكل مباشر مع نظريات فرويد. اعتقد أدلر بسعي الناس للتعويض عن أعضائهم الشاذة وذلك بالإفراط فى عملية التعويض. فعلى سبيل المثال لاحظ أدلر أن كثيراً من أفراد عائلة فنانين عظام لديهم علل مزمنة في العين. استهلك أدلر الكثير من وقته وطاقته في تكوين الفكرة التي مفادها أن هذا النقص العضوي يلعب دوراً هاماً فى المرض النفسى.



ألفرد أدلر قد خَلَفَ فرويد كرئيس لجمعية ڤيينا للتحليل النفسي. لقد اختلف أدلر مع فرويد على الفوارق النظرية مما أدى إلى استقالته من الجمعية احتجاجاً.

لم ينزعج فرويد من النظرية في حد ذاتها لكن أدلر سار بأفكاره إلى الذي دخل فيه مجال فلييس. قال أدلر أن جميع الأفراد يظهرون سمات تنتمي إلى كلا الجنسين، ومع ذلك يبدي الأفراد العصابيون خصائص جنسية ثانوية تنتمي للجنس الآخر أكثر من غير العصابيين، من مثل شعر الوجه عند النساء أو نمو الثدي عند الرجال.

يصبح العصابيون مرضى، كما يدعي أدلر، عندما تتصارع ميولهم الذكرية مع ميولهم الأنثوية. فعند الرجال تكون المعركة عبارة عن احتجاج الذكور على الميول الأنثوية السلبية لديهم. وبالطبع يفترض لهذه الميول أن تتأثر بالدورية الحيوية. كما اقترح أدلر أيضاً وجود دافع عدواني الذي أسماه (إرادة القوة) إضافة إلى الليبيدو والمدلل عند فرويد. يركز هذان المفهومان بالنسبة لأدلر على الواقع وعلى العمليات الشعورية لا على الحياة اللاشعورية التي اعتقد فرويد أنها هي الأهم. اعتبر فرويد، نظرية أدلر عن دافع العدوان أسوأ هجوم عليه. إذ رأى فرويد أي حديث عن الدافعية البشرية لا يُذكر فيه الجنسية الطفولية هو خيانة. لقد عمل طويلاً وجاهداً لكي يجعل الناس يصغون إلى نظرياته المنفرة.

إن الشخص الذي أخذ يضيف دوافع جديدة إلى النفس هو في نظر فرويد يحاول ببساطة أن يتظاهر بأن الصراعات الجنسية الطفولية ليست هامة.

كما أن دافع العدوان عند أدلر لم يكن مجرد خطأ في النظرية في رأي فرويد وإنما كان إنكاراً لمعظم أفكاره الهامة.

المشكلة في أفكار أدلر، كما ظن فرويد، هو أنها لم تكن نفسية في حقيقتها. وبدلاً من أن يستخدم أدلر مصطلحات فرويد قدم شرحاً عن العُصابات في مصطلحات ثنائية الجنس.

بالطبع قدم فرويد أيضاً شرحاً عن المرض النفسي في مصطلحات جنسية لكنه ذكرها ضمن مصطلحات الليبيدو (الطاقة الجنسية) التي ليس لها تعريفاً بيولوجياً. بينما يرى أدلر إمكان شرح كل ظواهر علم النفس بواسطة البيولوجيا (علم الأحياء). فالعقل كان أسيراً واللاشعور كان خارجاً عن الموضوع والليبيدو كان لاعباً قليل الأهمية.

قدم أدلر أفكاره إلى جمعية ڤيينا للتحليل النفسي خلال اجتماعين في عام 1911 ورد فرويد عليه بعد ذلك في اجتماعين آخرين. وأطلق الحضور على هذه الاجتماعات اسم المحاكمة.

كتب أحد المراقبين قائلاً «لم يَعفِ فرويد خصمه ولم يكن خائفاً من استخدام الكلمات الحادة والتعليقات الجارحة». اتهم فرويد أدلر امتلاكه لأفكار أصلية تافهة وإتمامه لنظرياته عن طريق الأخذ من أعمال فرويد الخاصة به. وخلال عام من ذلك أخذ فرويد يدعو أفكار أدلر بالمنحطة. استاء كثير من أعضاء الجمعية من تهجم

فرويد اللاذع وكانوا، وفقاً لرواية هانز ساكس، يخشون أن يكون فرويد قد «انتهك حرية العلم». استقال أدلر من رئاسته وغادر الجمعية في تاريخ 1911 آخذاً معه تسعة أعضاء ليشكل جمعية جديدة هي الجمعية من أجل تحليل نفسي حر. وصوتت جمعية فرويد على عدم إمكانية انتماء الأعضاء للجمعيتين معاً وقطع جميع الاتصالات بأعضاء الجمعية الجديدة.

وفي ڤيينا، أدى الخصام إلى تقسيم المجتمع المتأنق. فكان على الأزواج أن يغيروا مقاعدهم في حفلات العشاء حتى يتجنبوا لقاء خصومهم وتوقفت زوجات الأعضاء عن التحدث مع بعضهن البعض. وواصل أدلر مسيرته ليقيم مدرسته الخاصة بنظرية التحليل النفسي، التي أصبحت تعرف باسم علم النفس الفردي، كما روج فكرة أن مكانة الفرد وفقاً لترتيب مولده في الأسرة مثل الطفل الأكبر أو الأصغر أو الوحيد لها أثر عميق على شخصيته.

ومع حلول موعد مغادرة أدلر، كان فرويد مستعداً لأن يراه قد ذهب. ولم يمض وقت طويل إلا وكان على فرويد أن ينفصل عن زميل عزّ عليه أن يخسره. لقد كان كارل يونغ أيضاً لديه تساؤلات عن افتراضات فرويد. لم يشعر يونغ مثل أدلر بالارتياح تجاه التعريف الجنسي الضيق لليبيدو وفضل أن يغطي هذا المصطلح كل الطاقة النفسية وهذا موقف فسره فرويد مرة أخرى على أنه إنكار لأهمية الجنس في نشوء العصاب.

لم يرد فرويد أن يرى أحداً يغير في نظريته حتى وإن كان ولي عهده. وفي عام 1910 أضحت مراسلات يونغ إلى فرويد مليئة بالتذمر والإهانات وما يعقبها من اعتذارات.

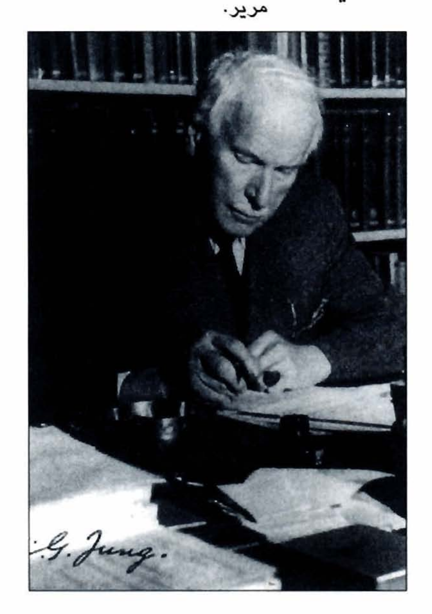
حاول فرويد من جانبه أن يكون لطيفاً مع يونغ وأن يقدم له النصح الأبوي. إلا أن العواصف أخذت تشتد بازدياد على العلاقة التي تربط فرويد مع يونغ. ففي عام 1912، وبناء على اقتراح من إرنست جونز، شكل فرويد لجنة سرية صغيرة لمراقبة جميع التطورات الجديدة الحاصلة في التحليل النفسي، وبخاصة الأعمال ذات الصلة باللاشعور والكبت والجنسية الطفولية. دُعي للانضمام إلى هذه اللجنة كل من جونز وساندور فيرينتشي وأوتو رانك ولم يكن يونغ من بين المدعوين.

كان يونغ في تلك الأثناء قد شرع في التشكيك بأفكار فرويد حول الجنسية الطفولية. «ليس الحصول على اللذة في أية حال من الأحوال مطابقاً للجنسية»، كما جاء في كتاباته. قارن يونغ طفولة الإنسان بالفراشات وهي في مرحلة اليرقات حيث لا يكون عندها جنسية بل ينصب جل اهتمامها على التغذية. هاجم يونغ جميع الأفكار التي أعطاها فرويد أعلى قيمة ولم يستثني منها عقدة أوديب. فبالنسبة إلى يونغ لم تكن الأم موضوعاً جنسياً بل رمزاً للحماية والرعاية، كما أكد على أن مصدر معظم الأمراض النفسية هي الصراعات النفسية الجارية وليس

الخبرات الطفولية. إذ على الأرجح أن يصبح الطفل عصابياً عندما يواجه بعض الأقران المتغطرسين في المدرسة من أن تكون لديه رغبة طفولية مكبوتة.

انتشرت فكرة يونغ، التي خرجت من حجرة استشارة فرويد في ڤيينا، إلى أبعد مما كان يتوقع. يعبر الليبيدو، الذي ليس من الضروري أن يكون جنسياً، عن نفسه فقط من خلال الرموز كما يدعي يونغ. هذه الرموز عالمية وموجودة في جميع أنحاء العالم ويمكن اكتشافها عن طريق مقارنة الأساطير بين الحضارات المختلفة.

كان يُنظر إلى كارل يونغ من قبل الكثيرين على أنه ولي عهد فرويد، مهيء لأن يرث زمام حركة فرويد في التحليل النفسي إلى أن أدت الاختلافات بينهما إلى افتراق مرير.



لعب أحد أوجه خروج يونغ على أصولية فرويد دوراً مؤثراً جداً في التحليل النفسي الفرويدي حتى يومنا هذا. ففي عام 1912 توصل يونغ إلى قناعة بأنه لا يستفيد المريض من المساعدة النفسية إلا إذا كان المحلل النفسي يتمتع بالصحة النفسية. إذ كتب قائلاً «يستحيل تماماً حتى على أمهر المحللين أن يقي المريض من تقمص غريزي للطريقة التي يتعامل بها المحلل مع مشكلات الحياة... [ولتجنب] الحاجات الطفولية غير المرعية عند المحلل [من أن تصبح] حاجات موازية عند المريض....، [يتوجب على المحلل أن يخضع إلى] تحليل نفسي فعال على يد محلل آخر». باختصار، يجب أن يخضع المحللون النفسيون أنفسهم للتحليل النفسي قبل أن يمارسوا التحليل النفسي

مع الآخرين. كان يونغ بذلك الدهاء يقوض قيمة التحليل النفسي الذي أجراه فرويد على نفسه. على المستوى الخارجي كان يوحي بتغيير في سياسة التعامل ساعد فيما بعد على وضع معايير في عملية تدريب المحللين.

اعتمدت جمعية التحليل النفسي الدولية هذا القانون أخيراً بعد 14 سنة في عام 1926. بدأت العلاقة الشخصية بين فرويد ويونغ بالتدهور. فقد ألقى يونغ سلسلة من المحاضرات في الولايات المتحدة في شهر أيلول 1912 متحدثاً بالتفصيل عن تصوراته المبتكرة. وفي شهر تشرين الثاني ظهر ضعف فرويد مرة أخرى أمام يونغ عندما كان الاثنان يناقشان أبحاثاً في التحليل النفسي كان يونغ قد نشرها من غير أن يستشهد بأعمال فرويد. واستمر يونغ في إرسال الرسائل الغاضبة إلى فرويد المنذهل. وبإنشاء يونغ لعلم نفس الأحلام واللاشعور خاص به أصبح متحمساً لأن يغادر عالم فرويد.

في عام 1913، كان يونغ ما يزال رئيساً لجمعية التحليل النفسي الدولية، وكانت لديه بسبب موقعه هذا المكانة المرموقة والنفوذ ومهما حصل من شجار بينه وبين فرويد ظل غير متحمس للتخلي عن مركزه ولم يستقيل حتى شهر نيسان عام 1914.

في شهر تموز من نفس العام نشر فرويد رواتبه على تاريخ حركة التحليل النفسي. كان الكتاب دعاية له وانتقاماً من خصومه. فقد أوضح روايته عن نشوء التحليل

النفسي تاريخياً واستخدم صفحات كثيرة منددا بيونغ وأدلر وآخرين خرجوا على طريقته المثلى.

وخلال الأعوام الكثيرة التي أعقبت ذلك، أمضى فرويد عدداً لا حصر له من الساعات مفنداً وداحضاً مزاعم الآخرين. وكان جل عمله حتى عام 1918 وما بعده مكرساً للرد على أحد خصومه من الذين أصبحوا معارضين له بعد أن كانوا ضمن حلقة مريديه الخاصة.

كانت درجة تقبل فرويد لأفكار الآخرين متدنية جداً: إن كان مريدوه لا ينكرون اكتشافاته الأساسية فهذا يعني أنهم سارقون لأفكاره، وإن لم يكونوا منكرين للمبادئ الأساسية أو سارقين لأعماله فعندئذ تكون أبحاثهم عقيمة وتفتقد للأصالة ويكون فرويد قد خاب ظنه فيهم. إن فرويد الذي هو الآن بمثابة الأب الروحي للتحليل النفسي يبدو أنه خائف من قيام أكثر أولاده نشاطاً وحيوية بتدميره وهم في نوبة جنون أوديبية جماعية.



بعد التحديات الكثيرة التي واجهت أفكار فرويد من قبل أدلر ويونغ وآخرين من شكل فرويد (الذي يجلس في الجهة اليسرى من الصف الأمامي) لجنة مؤلفة من أنصاره لمراجعة ومراقبة كل الأعمال الجديدة التي تتم في مجال التحليل النفسي.

وبالإضافة إلى النزاع الحاصل داخل صفوف جماعة التحليل النفسي كان لدى فرويد شعوراً طبيعياً بالقلق من مقدار جودة العلاج بالتحليل النفسي. إذ حققت أفكاره ومصطلحاته شعبية بين الأطباء الذين طبقوها على مرضاهم طوعاً أو كرهاً.

نشر فرويد في عام 1910 كُتيباً صغيراً حول هذه المشكلات بعنوان التحليل الطائش Wild Analysis يبدأ هذا البحث بقصة عن امرأة مطلقة متوسطة العمر تعاني من أعراض القلق.

عندما زارت طبيبها أخبرها على الفور أنها متعطشة جنسياً وأمرها إما أن تعود إلى زوجها أو أن تتخذ خليلاً أو أن تمارس الاستمناء.. بعد ذلك أرسلها الطبيب إلى فرويد للتثبيت من رأيه.

تَحيَّز فرويد غيظاً من تشخيص الطبيب السطحي الذي أصدره من غير تفكير. وبداية اعترض فرويد مبيناً أن الجنس في التحليل النفسي يعني أكثر من مجرد عملية الجماع الجنسي ويحتوي على عالم من المشاعر بما في ذلك مشاعر الغضب. تتضمن تقانة التحليل النفسي، كما يؤكد فرويد، ليس فقط إخبار المريض بما حصل من خلل وإنما التغلب على المقاومة وهذا أمراً خفق الطبيب المتهور بوضوح في القيام به.

إن مجرد التعرف على سبب المشكلة لا يؤدي إلى تماثل للشفاء إذا لم يقبل المريض محاكمة الطبيب.

كانت أكثر مقالات فرويد فائدة للمحللين العاديين هي «عند بدء العلاج». عوضاً عن مجرد تحذير وتأنيب أتباعه باشر فرويد يذكر الكيفية التي ينبغي أن يمارس فيها التحليل النفسي. ينبغي اللجوء إلى التحليل النفسي فقط، كما يقول فرويد، عندما يكون المريض ذكياً ويكون سلوكه متزناً وفقط بعد انقضاء فترة تجريبية مدتها أسبوع أو نحوه. ويجب على المحلل أن يقلل من كلامه كثيراً أثناء الأسبوع الأول حتى لا يبدو وكأنه قد قطع عملية المعالجة إذا لم يقبل المريض.

حالما يتفق المحلل والمريض على الدخول في عملية التحليل النفسي، كما يقول فرويد، يتوجب على المحلل أن يتوقع من المريض أن يكون متردداً في مناقشة موضوعين: هما الجنس والمال، إن أي تخفيض في رسوم المحلل، كما يحذر فرويد، يعزز المقاومة عند المريض. ويمكن تعرض دخل المحلل للخطر أيضاً. حينما نشر فرويد مقالة (عند بدء العلاج) في عام 1910، كان يرى معظم مرضاه ستة مرات في الأسبوع. فقد كان يعيل أسرته من الرسوم التي كان يتقاضاها من ثمانية أشخاص فقط.

أكد فرويد على أن معظم ما يفعله المحلل هو في الاستجابة إلى التداعيات الحرة عند المريض. فالتفسير وإخبار المريض بحقيقة ما يقوله هو العلاج للتحليل النفسي. وعن طريق تحليل مقاومة المريض يكشف

المحلل النقاب عن المساومات المؤلمة التي أجراها المريض من أجل إخفاء رغباته المكبوتة.

بعدئذ وعن طريق تحليل الإنقال عند المريض يبين المحلل للمريض مصدر هؤلاء الرغبات. ليس هذا الإنقال علامة من علامات المرض النفسي لكنه يدل على شكل صلة بين المريض والمحلل. والسر في التداعي الحر، بعد كل ذلك، هو في كونه حراً. إذ باستطاعة المريض أن يقول أي شيء للمحلل مهما كان هذا الشيء وقحاً أو مذهولاً أو منحرفاً ولن يقوم المحلل بدوره بمحاسبة المريض على ما يقول أو بإخباره ما الذي يتوجب عليه أن يفعله. بإمكان المريض أن يقول أي شيء يحبه يصبح المحلل الوسيلة التي تخرج بها الرغبات الممنوعة عند المريض من الظلام إلى دائرة الضوء. وكما كتب فرويد «تتوقف نتائج التحليل النفسي على الإيحاء... وهو تأثير حقيقي على الفرد بوادر ظاهرة الإنقال».

وصف فرويد ثلاثة أنماط للإنقال في بحثين هما «ديناميكيات الإنقال» و«ملاحظات على قانون الإنقال» اللذين تم نشرهما في عام 1912 وعام 1914، وبيّن أن الإنقال السلبي والشبقي هما سهلان نوعاً ما على المحلل في التعريف والتشخيص. فالمريض الذي يعاني من الإنقال السلبي سيظهر عدوانية تجاه المحلل، بينما يُحدث الإنقال الشبقي انجذاباً عاطفياً وجنسياً تجاه المحلل. يترك المرضى ذوي الاتجاه العدائي التحليل النفسي بينما يطالب

المرضى المهتمين شبقياً بالحصول على محبة المحلل. يؤدي هذان النوعان من الإنقال إلى حدوث ظاهرة نفسية أخرى هي المقاومة. إلا أنه من الممكن تنحية دور كل من الإنقال السلبي والإنقال الشبقي عن طريق لفت انتباه المريض إليهما. عندئذ يبقى لدى المريض نوع ثالث من الإنقال هو الإنقال الإيجابي. وفيه يصبح المريض مستعداً لأن يعمل مع المحلل كحليف له بدلاً من أن يراه موضوعاً للمقاومة. وكما جاء في الخطاب الذي كتبه فرويد إلى يونغ في عام 1906 «من الضروري أن يمر العلاج عبر عاطفة الحب» ومع ذلك لم يتوقع فرويد من المحللين أن يقعوا في حب مرضاهم، على الرغم من وقوع مرضاهم في حبهم على نحو متكرر. وأصر أن يكون المحلل النفسي بارداً عاطفياً و«كامد مع مرضاه وأن يكون كالمرأة يريهم ما يرى من غير زيادة أو نقصان».

كما قارن المحللين النفسيين بالأطباء الجراحين، الذين لا يتعلقون عاطفياً بالمريض بغرض حماية المحلل من جهة ومساعدة المريض من جهة أخرى.

لقد تغير تفكير فرويد بشكل جذري، فبدلاً من أن يعالج المحلل مرضاه عن طريق استخراج ذكرياتهم أصبح فجأة يعالجهم عن طريق الحب. ومنذ حالة دورا بدأ فرويد يعطي انتباهه إلى الصراعات التي يبديها المرضى أثناء عملية التحليل، فقد كتب في عام 1914، «لا يتذكر المريض أي شيء كان قد نسيه أو كَبَتَه لكنه يظهر ردود

أفعال عليه فهو يعيد إظهار الشيء المنسي لا على شكل تذكر له ولكن على شكل فعل يكرره من دون أن يعلم، بالطبع، أنه يكرره». يعيد المريض إحياء الموقف الذي لم يلبي فيه حاجاته مراراً وتكراراً لأنه لم يتم إرضاء رغباته الغريزية. وعندما يكرر المريض الموقف مع المحلل فقد ضَمِنَ مُشاهداً يتعاطف معه. إلا أن المحلل يمثل شكلاً من أشكال السلطة. وبتحليل الإنقال يستطيع المحلل أن يحطم وسواس المريض المتعلق بأبويه وبرموز السلطة. يستطيع المريض عندئذ أن يصبح حراً وبإمكانه أن ينمو.

كان فرويد متعباً من التحديات، إذ ثارت التساؤلات حول نظرياته وامتلأت جمعية ڤيينا للتحليل النفسي بالمنشقين وكثير ما تمرد مرضاه عليه. في أيامه الأولى كان فرويد متسامحاً مع اعتراضات وتساؤلات مرضاه أما الآن فقد أحس أن المرضى الذين جعلهم المعالجون يشعرون بالحب نحوهم هم أقل تمرداً.

بينما كان فرويد ينقح تِقاناته العلاجية كان أيضاً يُدخل تحسينات على نظريته. فقد بدت عقدة أوديب للعيان كبيرة الحجم في أعماله وفي حياته الخاصة. ظن فرويد أنه من الممكن إرجاع جميع العُصابات عند مرضاه إلى مسرحية الأسرة الأوديبية والرغبة تجاه أحد الأبوين من الجنس الآخر والتنافس مع الآخر الذي هو من نفس الجنس.



في شهر أيلول من عام 1911 عُقد مؤتمر التحليل النفسي الدولي الثالث. مثَّلت هذه المؤتمرات منتديات لمناقشة واقع البحوث الجارية. كما شكلت مواقع للمعارك الضارية من أجل السيطرة على حركة التحليل النفسي الدولية.

وعوضاً عن التأكيد على قدرة الأطفال على إيجاد المتعة الجنسية بطرائق متعددة أخذ فرويد في إظهار عقدة أوديب على أنها الموقف الوحيد الذي يتيح للأطفال أن يَنمو بشكل طبيعي باتجاه الرشد.

وفي بحث قدمه عام 1910 بعنوان «صياغة مبدأين من مبادئ النشاط النفسي» ترجم فرويد أفكاره إلى مصطلحات أكثر أُلفة.

أصبحت (العملية الأولية)، وهي اجتماع الطاقة النفسية، تعرف باسم (مبدأ اللذة)، الذي يسعى إلى الشعور بالرضى والذي يخضع لسيطرة (أنا اللذة). وأصبحت العمليات الثانوية والتي تدرك الفرق بين الأحداث الداخلية والأحداث الخارجية، تعرف باسم (مبدأ الواقع) الذي يتبع (أنا الواقع). يقوم مبدأ الواقع بحماية مبدأ اللذة عن طريق التعامل مع عالم الواقع الذي يحيط بالعضوية من الخارج. يتم الاحتفاظ بمبدأ اللذة من

أجل الاستخدام في الأوقات التي تتوافر فيها المتعة، أي عندما تسمح الظروف الخارجية.

أخذ فرويد يكثر من استخدام مصطلح الأنا. كتب في عام 1914 بحثاً دعاه «حول النرجسية». ففي الأساطير الإغريقية كان نارسيوس شاباً وسيماً قد وقع في حب صورته المنعكسة على بركة ماء.

يعتبر الحب المفرط للذات أمراً مألوفاً عند الأطفال لكنه يعتبر علامة على المرض النفسي عند الكبار.

بشكل عام إذا ارتبط ليبيدو الشخص أو طاقته الجنسية بشخص آخر كانت النتيجة هي النرجسية. عبَّر فرويد عن النرجسية بحركة الطاقة الجنسية. إذ هناك يتوجه ليبيدو الأنا عن الذات وكذلك ليبيدو الموضوع الذي يبحث عن لذة جنسية خارجية. سَبَّبَ هذا الشرح المتاعب لفرويد، فقد ميَّز من قبل بين مبدأ الواقع ومبدأ اللذة وبين دوافع الليبيدو ودوافع الأنا.

يفترض أن تعمل دوافع الأنا على حفظ الذات وأن لا تكون جنسية في حين تكون دوافع الليبيدو جنسية. لكن فرويد يفترض فجأة في كتابه (حول النرجسية) أن دوافع الأنا اللاجنسية يمكن أن تكون جنسية. وهذه مشكلة لأنه إذا كان من الممكن أن يتأثر الأنا، الذي يمثل العملية الثانوية في حفظ الذات، بالجنس، فهذا يعني أن الذات في مجملها مدفوعة فقط برغبات جنسية. وبالرغم من اعتقاد فرويد أن الصراعات الجنسية تقف عند جذور

المرض النفسي إلا أنه لم ير أن الجنس هو الدافع الوحيد في العقل أو النفس البشرية.

في البداية، ادعى فرويد أنه بكل بساطة يضيف أمثلة جديدة على الدوافع الموجودة. والآن أصبح هناك دوافع ليبيدية ودوافع غير ليبيدية وهي ليبيدو الأنا ego-libido وليبيدو الآخر أو الموضوع object-libido إضافة إلى الأنا القديم المحض. وكان قد شرع في محاولةٍ لتعريف الأنا بطريقة جعلت هذا المفهوم في منأى عن تعديلات أدلر المثيرة للقلق وعن مفهومه (إرادة النفوذ والقوة) وفي منأى عن ليبيدو ويونغ اللاجنسي. وفجأة أصبح نموذج فرويد البسيط للأنا والليبيدو ذو الجزئين مختلطاً ومشوشاً. اختط كتاب (حول النرجسية) علامة على بداية نظرية نفسية جديدة.

في عام 1915 بدأ فرويد عمله على كتاب عنوانه (مقدمة إلى ما وراء علم النفس). كان يحاول بهذا الكتاب أن يعيد كتابة الأساس الكلي الذي يقوم عليه علم النفس وفي هذا الكتاب وصف العقل من خلال ثلاثة وجهات نظر: الأولى أن هناك أقساماً مختلفة للعقل: الدوافع والذكريات المكبوتة اللاشعورية، وما قبل الشعور الذي يقوم بغربلة المواد التي يمكن إحضارها إلى العقل الشعوري والعقل الشعوري ذاته. قدَّم فرويد تفاصيل عن حركة وكمية القوى النفسية وناقش الكيفية التي تمارسها الدوافع المتنافسة في إحداث الصراع في اللاشعور.

يعرف فرويد في كتابه الجديد الدوافع على أنها «الحاجة إلى العمل التي تلح على العقل بحكم صلتها بالجسد». تتغير الدوافع مع مرور الزمن إذ يبدأ الحب في النرجسية ثم ينتقل إلى أشخاص آخرين عن طريق الغرائز الجنسية. أما الكراهية فهي نتاج مرحلة نمائية تسبق مرحلة الحب الناضج، إلا أنها تبقى نتيجة لتوجيه الطاقة الجنسية إلى شخص آخر. تناقضت هذه الفكرة مع نظرية الليبيدو وكانت مؤشراً إلى مزيد من التغيرات النظرية القادمة.

تغير تعريف فرويد للكبت أيضاً، فهو ما يزال يؤمن أن الطاقة المتصلة بفكرة مكبوتة تتحول إلى حالة قلق، إلا أن الفكرة ذاتها تبقى قائمة وتنسل إلى اللاشعور جاهزة للتحول إلى أخيلة وأحلام.

كذلك قدَّم فرويد شرحاً عن اللاشعور فذكر أنه يحتوي على كل من الأفكار المكبوتة والرغبات «العملية الأولية»، التي لا تتأثر بالواقع الخارجي.

لا يملك اللاشعور إحساس بالزمن وليس لديه القدرة على تجنب المفارقات والتناقضات كما أنه غير خاضع لمطالب وقوانين العقل الشعوري، أما ما قبل الشعور فوظيفته أن يعمل على شكل حاجز يتم فيه وضع الأفكار اللاشعورية على شكل كلمات وعبارات قبل أن تصل إلى العقل الشعوري.

هنالك فكرة أخرى كانت تدور في مخيلة فرويد، ففي مقالته الشهيرة التي تبحث في ما وراء علم النفس بعنوانه حول الأسى والسوداوية on Mourning and Melancholia المؤرخة في عام 1917، كتب فرويد أن سبب أفكار معاقبة الذات، التي تحدث اكتئاب السوداوية، هو ذلك الجزء من الأنا الذي أضحى مشطوراً عن بقية الأنا والذي يحاكم ويعاقب صاحب الأسى. إن فكرة الأنا المشطور كانت أول ومضة لفكرة فرويد عن الأنا الأعلى وهو نوع من الضمير الأخلاقي في النفس. كل ما كتبه فرويد في ما وراء علم النفس هو 12 مقالاً لكنه مزق سبع مقالات منها قبل أن تصبح قيد النشر إذ غير رأيه حول المفاهيم الأساسية التي كان يتحدث عنها. وحول الطريقة التي توفق بينها وبين أعماله السابقة. كان فرويد يركز انتباهه على المجتمع الإنساني الكبير أيضاً. فقد نشر سلسلة من المقالات القصيرة عن الفن والثقافة بما في ذلك «ليوناردو دافنشي وذاكرة طفولته» عام 1910 و«موسى مايكل أنجلو» عام 1914 استخدم هذه المقالات للكشف عن الأساس التحليلي النفسي في أعمال الفنانين، ليس فقط استدعاء أحداث الطفولة التي أثرت في حياتهم بل في تفسير الكيفية التي عَبَّروا فيها عن عواطفهم المكبوتة في فنونهم.

في عام 1913، نشر فرويد كتاباً يدعى (الطوطم والتابو)، وهو أول عمل يقوم فيه فعلاً بتطبيق التحليل النفسي على بُنى الحضارة.



في 14 أيلول من عام 1911 اجتمعت عائلة فرويد لتحتفل بمرور 25 سنة على زواج فرويد ومارثا.

قام فرويد بدراسة مَسْحيَّة لتيار علم أصول الأقوام في ذلك الحين، فشرح الأباعدية، وهي الزواج من الأباعد خارج نطاق العائلة أو العشيرة الأصلية والطوطمية، وهي عبادة وتفحص الحيوانات أو الأشياء، والتابو، وهو القواعد التي تحرم أفعال معينة، من خلال الرغبات البشرية اللاشعورية.

احتوى كتاب الطوطم والتابو على أربعة مقالات لكنها كانت ذات هدف واحد: وهو شرح التطور الكلي للحضارة الإنسانية من خلال عقدة أوديب. في إحدى المرات، كتب فرويد مبيناً أن هناك قبيلة بدائية يهيمن عليها أب عنيف ذو استحواذ جنسي. جعل هذا الأب جميع نساء القبيلة مسخرات لإرضاء شهوته الجنسية وقام بطرد جميع أبنائه. وحينما بلغ أبناؤه الحلم اجتمعوا عليه وانهالوا عليه ضرباً حتى قتلوه. فيما بعد أخذوا جثته وأكلوها حتى يحصل كل واحد منهم على

«جزء من قوته». بعد انقضاء هذه الجريمة أخذ الشعور بالذنب يغلب على الأخوة. إذ أحب الأبناء أباهم وافتقدوه كثيراً بعد موته. ولكي يكفروا عن هذا العمل الشرير وضع هؤلاء الأبناء سلسلة من التابو أو القواعد التي تحرم أفعال معينة ومنها حرمة زواج أبناء القبيلة من نساء القبيلة ذاتها اللاتي ينظر إليهن على أنهن أمهات لهم وزوجات لأبيهم. كما حرم الأبناء على أنفسهم أن يمسوا الطوطم بأي أذى. كان الطوطم عبارة عن حيوان يعبد على أنه الجد الأعلى للقبيلة، لكنه الآن أصبح يتعرض للقتل وللأكل على شكل إعادة لطقوس أكل لحوم أبناء الجنس الواحد عند الأخوة. شكلت هذه الحالة البائسة الجديدة بداية لنشوء الحضارة.

جاء فيما كتبه فرويد أن قصته عن نشوء الحضارة تعتمد على الاعتقاد الذي مفاده أن هناك (عقلاً جميعاً) يعمل بشكل مشابه لعقل الفرد وأنه من الممكن لأفكار العقل الجمعي أن تدوم لآلاف السنين. ظن فرويد أن الشعور بالذنب يمكن أن يورَّث.

لاقت فكرة قبيلة البشر الأوائل الذين خضعوا لهيمنة الذكر القوي، شعبية في عصر فرويد. فقد كانت واحدة من فرضيات تشارلز داروين حينما تحدث عن التطور البشري. إلا أن إصرار فرويد على حقيقة وجبة الأضحية جعلته يأخذ الموضوع الذي يجادل عنه من مجال علم

النفس والخيال الأوديبي إلى مجال علم الأصول الثقافية للأقوام والمجتمعات البشرية.

ومع حلول عام 1920 نشر المتخصصون في علم أصول الأقوام البشرية أبحاثاً لاحظت أن معظم القبائل التي تعبد الطواطم لا تأكلها أثناء وجبات الأضحية، وبذلك تكون قد دحضت ما أكد عليه فرويد. فقد تجاهل فرويد أيضاً دليلاً على أن كثيراً من الناس تراودهم أخيلة عن أكل أمهاتهم. كما ظهرت عبر التاريخ صور تُعرض الأرض على صورة الأم التي ترضع البشرية من لبن ثدييها. كذلك تجاهل فرويد في كثير من أعمالهم دور المرأة في المجتمع. إن المرأة السلبية التي ليس لها حضور في كتابة الطوطم والتابو هي ببساطة ضحية لتجاهله لها أكثر من أي شيء آخر.

كانت كتابة فرويد للطوطم في جزء منها رداً على انبهار يونغ بالدين والإيمان الروحي. إذ لاحظ يونغ أن المرضى الذين يعانون من الفصام لديهم في الغالب أخيلة تشبه أساطير قبائل ما قبل المرحلة الصناعية. وكما ذكر فرويد «في عام 1912 أدت إشارة يونغ القوية إلى التشابه بعيد المدى بين ما يصدر عن العقل من أخيلة والشعوب البدائية إلى جعلي أوجه انتباهي إلى هذا الموضوع». كان فرويد يعلم أن ما جاء في ورقة بحثه هذه سيضايق يونغ ومع ذلك نشرها على أية حال. وكما كتب إلى زميله كارل إبراهام Karl Abraham، «يونغ مجنون، وليس عندي

رغبة في الانفصال عنه بل يجب أن أدعه يحطم نفسه بنفسه أولاً. ولعل ما كتبته في الطوطم سوف يعجل في النكث بالعهد مع إرادتي». وطبعاً كان لدى فرويد أموراً أخرى شغلت باله أيضاً ففي عام 1914 دخلت هنغاريا النمساوية الحرب العالمية الأولى.



فرويد في عام 1916 مع اثنين من أبنائه إرنست (من اليسار) ومارتن، الذين خدما في الجيش النمساوي. حفَّزت أهوال الحرب العالمية الأولى فرويد على التفكير في الأساس النفسي للحرب.



المعانـــاة

على الرغم من معاناة فرويد من الاتجاه المعادي للسامية، فقد كان مخلصاً لانتمائه الوطني الهنغاري النمساوي عند ابتداء الحرب، وكان قد أزعجه عندما أيد إرنست جونز Ernest Jones، المحلل النفسي الإنكليزي الذي كتب فيما بعد سيرة فرويد، السياسة البريطانية. (أثناء الحرب، كانت بريطانيا وفرنسا وروسيا معادية لألمانيا والاتحاد الهنغاري النمساوي) ومع مرور الزمن أصبح فرويد متعباً من الحرب إذ خلال سنوات الحرب من عام 1914 إلى عام 1918 كانت مجلات التحليل النفسي التي ساعد فرويد على تأسيسها إما متوقفة عن الصدور أو محدودة الانتشار والتداول. كذلك كانت تعقد اجتماعات جمعية ڤيينا للتحليل النفسي، في بدايتها، كل أسبوع وبعد ذلك كل أسبوعين وبعد ذلك أحياناً. التحق

أبناء فرويد الثلاثة بالجيش كذلك اضطرت ابنته أنّا للبقاء لفترة وجيزة في إنكلترا عندما اندلع القتال.

شرع فرويد في التفكير بالأساس النفسي للحرب. وفي كتابته عن الحرب والموت توصل إلى أن بواعث العدوان هي أشد بكثير مما يتوقع الناس. والمسألة هي في وجوب تصعيد أو إعادة توجيه طاقة هذا العدوان. والحرب في رأي فرويد هي نتاج حفنة من القادة المتنفذين ذوي النوايا الشريرة الذين يحرضون مواطنيهم على الحرب إذ لا يمكن للشعب أن يتصور الحرب على حقيقتها.

يفكر أفراد الشعب بأحلام المعارك المجيدة فقط التي لا يتعرض فيها المدنيون للقتل أبداً. شعر فرويد بقوة أن بمقدور الحرب أن تُري آلاف الناس أن البشر في أصلهم ليسوا طيبين ولا عقلاء.

أمسى الناس، أثناء الحرب، شديدوا الاهتمام بالتحليل النفسي والسبب في هذا الاهتمام المفاجئ هو عُصاب الحرب أو «صدمة القصف». إذ أصبح آلاف من الجنود معاقين نفسياً وغير فعالين بعد أن واجهوا الأهوال على أرض المعركة. وعجزت السلطات الطبية عن إيجاد طريقة لعلاج هؤلاء الرجال. في عام 1918 جاء ممثلون عن حكومات ألمانيا وجمهوريتي هنغاريا والنمسا المنفصلتين حديثاً لحضور أول مؤتمر للتحليل النفسي الدولي يعقد بعد الحرب. إلا أن الرغبة في إنشاء مراكز

العلاج النفسي لضحايا عُصاب الحرب لم تدم طويلاً بسبب تعرض هذه الدول إلى ثورات داخلية.

كانت سنوات ما بعد الحرب عسيرة على فرويد. إذ لم يتوافر إلا القليل من الطعام أو الوقود في ڤيينا. واختفى الحليب واللحوم من منزل فرويد وأضحت الأقلام والأوراق نادرة من عام 1918 حتى عام 1921. وذات مرة، سُئِل فرويد إن كان يقبل بمقايضة أوراق بحثه بالبطاطا بدلاً من المال. وفي الأعوام التي تلت الحرب عانت العملة النمساوية من تضخم هائل. بين عامي 1914 و1922 انخفضت قيمة الكرون النمساوي بعامل قدره 20,000، ليهبط من 5 إلى 100,000 كرونر مقابل الدولار.

وأمام هذا الوضع كتب فرويد رسائل تَشكي إلى كل أصدقائه وأقاربه في الدول الأجنبية طالباً منهم الطعام والكساء والسيجار. في ڤيينا بدأ فرويد بقصر ممارسته على المرضى من إنكلترا والولايات المتحدة الذين يستطيعون أن يسددوا له رسوم العلاج بعملة لا تعاني من التضخم. كان الإصغاء إلى اللغة الإنكليزية مدار اليوم متعباً بالنسبة إلى فرويد، إلا أنه استمتع بتحقيق الأمن المالي. حتى إنه أصبح بمقدوره إرسال تبرعات منتظمة إلى لو أندرياس ـ سالومي Lou Andreas-Salomé وهي إحدى زميلاته المفضلات في التحليل النفسي خلال السنوات الأولى من العقد الذي يبدأ بعام 1920. وعندما اكتشف أنها تجري 10 جلسات تحليل في اليوم في عام

1923، وجه لها توبيخاً على إجهادها لنفسها وأرسل لها مزيداً من المال.

عاني سكان ڤيينا من المرض أيضاً، وهاجت الأوبئة وفي عام 1920 توفيت سوفي ابنة فرويد الثانية من الإنفلونزا. انفطر فؤاد فرويد حزناً عليها، وكتب إلى صديقه أوسكار فيستر Oskar Pfister. «تركت سوفي طفلين أحدهما ست سنوات والآخر ثلاثة عشر شهراً وزوجاً لا عزاء له، الذي سوف يدفع الآن ثمن سعادة هذه السنوات السبع. سعادة داخلية بين الزوجين لا خارجية. فالحرب والغزو والإصابة وتضاؤل الممتلكات كل ذلك لم يفقداهما الشجاعة والمرح...

إنني أعمل بأقصى ما أستطيع وأنا شاكر على السلوى. يبدو أن فَقْدَ الولد إصابة نرجسية خطيرة وأما ما يعرف باسم الحِداد فالأرجح أنه يأتي لاحقاً فقط».

في وسط هذا الوضع المضطرب، نشر فرويد واحداً من أكثر كتبه غرابة في ما وراء علم النفس. فقد قادته تأملاته، وهو محاط بنتائج وعواقب الحرب من موت ودمار، إلى دافع العنف عند الإنسان. ومع صدور كتاب ما بعد مبدأ اللذة في عام 1920 أضاف فرويد عاملاً آخر إلى النفس أو الجهاز النفسي إضافة إلى الدوافع التي ذكرها سابقاً والكبت ومبدأ الواقع، ولا يفوتنا طبعاً مبدأ اللذة.

لاحظ فرويد أنه يبدو أن هناك واقعاً قسرياً على

التكرار فالأشخاص العصابيون يكررون كوابيسهم والأطفال يمثلون المواقف المرعبة على نحو متكرر. وفي التحليل النفسي يعيد المريض تمثيل معاناة الطفولة من خلال آلية الإنقال. وعلى وجه الإجمال يبدو الناس على أنهم يجدون أنفسهم في نفس الموقف مرة تلو الأخرى. وبناء على هذا النوع من الأدلة توصل فرويد إلى أن دوافع الإنسان محافظة فهي لا تسعى إلى مساعدة الفرد على النمو والتطور بل تحاول الدوافع عند الإنسان أن تعيد إحياء الماضي وأن تعود إلى الحالات السابقة. أصبح فرويد يعتقد الآن أن هناك مجموعتين من الدوافع: دوافع الليبيدو وتدعى إيروس Eros نسبة إلى إله الحب عند الإغريق وغريزة الموت والتي أطلق عليها القارئون لأعمال فرويد حالاً اسم ثاناتوس Thanatos نسبة إلى إله الموت عند الإغريق.

أما غريزة الموت فتمثل نزوع الحياة إلى العودة إلى حالة اللاحياة، وهناك غريزة حفظ الذات، التي كانت تعرف بمبدأ الواقع، وهي جزء من غريزة الموت التي تقاوم الموت لأسباب خارجية. كما أنها تعارض التغيير حتى تموت العضوية من أسباب داخلية بدلاً من أسباب خارجية. كتب فرويد «إن هدف الحياة في مجملها هو الموت». وما كان أكثر جرأة هو تصريح فرويد باحتواء ثاناتوس على دافع العدوان ـ وهو ذات المفهوم الذي أدى إلى طرد أدلر من الجمعية الفرويدية.

أحدث فرويد تغيراً هاماً آخر في نظريته. فحينما ابتدع إيروس وثاناتوس تخلى عن نموذجه النفسي المرتكز على الطاقة. وأصبحت نظرية فرويد عن النفس أقل ميكانيكية ولم تَعد يُنسب إليها القوى البيولوجية الغامضة. أما زملاء فرويد فلم يكونوا سعداء بالمستجدات من أعماله. وكان من الممكن تسمية كتابه (ما بعد مبدأ اللذة). ما بعد التحليل النفسي وفقاً لوجهات نظر بعض المريدين. لم يقدم هذا الكتاب المساعدة على مستوى الممارسة ولم تبدو فيه أي فائدة عيادية. وكان عسيراً أيضاً معرفة ما إن كان فرويد قد اكتشف حقاً غريزة الموت أو مجرد العدوان. تقبَّل كثير من المحللين فكرة الصراع بين إيروس وغرائز العدوان وتخلُّوا عن البقية.

أصبحت نظرية فرويد عن النفس صعبة التناول غير عملية أيضاً. كما كان مفهومه عن الثاناتوس عسيراً على التوافق مع تقسيمه القديم للنفس أو العقل إلى الشعور وما قبل الشعور واللاشعور. إذ لم تكن غريزة الموت كما هو واضح جزءاً من الشعور أو ما قبل الشعور أو لم يكن فرويد قد انتبه إلى هذه الغريزة في مرحلة باكرة. ومع ذلك إن كان كلاً من غريزة الموت وإيروس جزءاً من اللاشعور فلا بد إذاً للاشعور أن يحتوي على دافعين متصارعين. وإن كانت غريزة الموت لاشعورية فإنها عُرضة للكبت ـ لكن بماذا؟

يبدو أن للعقل أقساماً أكثر من تلك التي رغب فرويد

أن يعترف بها. ورأى أن كلمات مثل الشعور واللاشعور قد أضحت مشوشة وأراد أن يستبدلاهما بمصطلحات أحدث وأكثر دقة. أعاد فرويد تصميمه لمصور العقل مشكلاً ما أطلق عليه أتباعه اسم النظرية البنائية Structural Theory.

شرع فرويد بإعادة بناء نظريته مع كل من الأنا Ego والهو Id عام 1923. لقد استنتج ذلك من خبرته مع المقاومة. فقد قاوم كثير من المرضى جهود المحللين النفسيين من غير أن يَعوا ما كانوا يفعلونه.

Das Ich und das Es

von

Sigm. Freud

1.—8. Tausend



1923
Internationaler Psychoanalytischer Verlag
Leipzig Wien Zürich

قدّم فرويد نظريته الثورية التي تقول إن العقل مقسّم إلى ثلاثة أقسام منفصلة: الأنا والهو والأنا الأعلى.

وبالتالي فإنه لا يمكن للأنا الذي هو صلة الوصل مع الواقع والذي يُصْدِرُ الكبت والمقاومة أن يكون كله شعوري.

آن الأوان الآن بالنسبة لفرويد لكي يقسم الأنا. إذ هناك الأنا الشعوري الذي يسيطر على جهاز الحركة (وهو جزء من الجهاز العصبي الذي يسيطر على الحركة) والحواس، والأنا اللاشعوري الذي يكبت الأفكار المزعجة والأحلام المراقبة.

أما مهمة مراقبة العقل كله فهي من عمل الأنا الأعلى الذي يحاكم ويعاقب.

ينشأ الأنا الأعلى عندما يحل الطفل عقدة أوديب. يتقمص الطفل شخصية الوالد من الجنس الآخر. ويتبنى مبادئه السلوكية وبخاصة المبادئ التي تناهض غشيان المحارم.

أما الهو، الذي يتخفى في الأسفل، فهو مصدر كل الرغبات والغرائز ويقوم بتزويد اللاشعور بالطاقة. يحتوي الهو على المواد المكبوتة. إلا أنه ليس كل شيء في الهو يعتبر مكبوتاً. يتوسط الأنا بين الهو والأنا الأعلى ويعمل على تدمير شؤون الواقع، وفي الوقت الذي يصرح فيه الهو عن رغباته يحاول الأنا أن يرى إن كان باستطاعته أن يرضي الهو إلا أن اختياراته العملية تواجه قيوداً من قبل الأنا الأعلى. يسعى الأنا في نفس الوقت أن يقنع الهو بقبول الضوابط والحدود الموجودة في الحياة كما يحاول أن يقنع الأنا الأعلى بالاستجابة إلى رغبات الهو. كتب فرويد بعبارات ذات بعد اجتماعي «الهو هو غير أخلاقي تماماً، أما الأنا فيحاول أن يكون أخلاقياً، وأما الأنا الأعلى فهو أخلاقي بشدة وقسوة».

ليس الأنا الأعلى هو الضمير الأخلاقي تماماً. إذ يتشرب التعليمات والأوامر الأبوية المتنازعة من مثل «عليك أن تُشابه أباك» وبما أنه لا يمكن للطفل أن يكون بديلاً عن أبيه فإنه «من الممكن أن لا تشابه أباك». بمقدور الأنا الأعلى أن يحدث مشاعر لاشعورية بالذنب تصبح مشاعر الذنب هذه واضحة فقط في الظروف التي تبدو سعيدة.

كما هو الحال عندما يهنئ المحلل مريضه على التقدم الذي أحرزه في العلاج. ففي بعض الأحيان يصبح المريض بعد ذلك أكثر سوءاً «كرد فعل سلبي على العلاج». على خلاف الكوابيس التي وصفها فرويد في كتاب تفسير الأحلام على أنها أفعال جريئة، فقد رأى رد الفعل هذا على أنه استجابة يائسة. يحتوي لاشعور المريض على مشاعر الذنب التي تتطلب العقاب. يسدي الأنا الأعلى ربما في بعض الأحيان خدمة إلى غريزة الموت.

يعتبر الأنا الأعلى مفهوماً جديداً كلياً لكن تأثيره على التحليل النفسي لا يمكن مقارنته بتأثير مفهوم الأنا المحسن الجديد. ووفقاً لما يراه فرويد عندما يتم انتقاء موضوع الحب (كالوالد) فإنه يتم استبدال ذلك الموضوع عند الأنا بما يمثله باختصار، بمقدور الوالدين أن يستمرا في التأثير على الطفل بما لهما من تمثيل داخل أنا الطفل ومن خلال الأنا الأعلى أيضاً. أما مسألتي التقمص والأنا فسوف تبدوان كبيرتين بالنسبة إلى فرويد وإلى نظرياته عن النحو الأنثوي.

عوضاً عن كبت رغبات الهو ببساطة، فإن الأنا هو أمل الإنسانية الوحيد في تحقيق التوازن بين المطالب المتصارعة للواقع وللهو وللأنا الأعلى. إن هذا الدور الجديد للأنا كان فاتحة لميدان علم نفس الأنا، وهو فرع من نظرية التحليل النفسي التي تدرس كيفية تطوير الأنا

لآليات التعامل مع الصراعات بإيجاز سمح علم نفس الأنا إلى فرويد وأتباعه أن يركزوا على الكيفية التي يسلك بها الأنا السليم بدلاً عن التركيز على السلوك العصابي. كذلك فإن علم نفس الأنا هو سبيل لادعاء أفكار ابني فرويد غير المخلصين أدلر ويونغ. إذ جادلا عن فكرة ألا يكون التحليل النفسي مجرد دراسة الأعراض والذاكرة بل دراسة الكيفية التي تشكلت بها الشخصية كلها. لقد منح علم نفس الأنا أتباع فرويد طريقة للاستيلاء على أفكار يونغ وأدلر من غير خيانة فرويد.

عندما صاغ فرويد المصطلحات النفسية استخدم كلمات ألمانية من مثل: das Es, das Ich, and das Überich التي تترجم إلى الهو والأنا والأنا الأعلى. إن كثير من المصطلحات الغريبة والمربكة في علم النفس الفرويدي كانت من ابتكار فرويد الناطقين باللغة الإنكليزية، الذي ترجموا من اللغة الألمانية اليومية الواضحة إلى اللغة اللاتينية id, ego, superego بدلاً من اللغة الإنكليزية.

في تلك الأوقات كانت أغلب المصطلحات الطبية والمفردات الفنية في العلوم الأخرى تترجم إلى اللغة اللاتينية. وكانت اللغة اللاتينية مطلوبة في جميع المدارس الثانوية. إن تحويل كتابات التحليل النفسي من الألمانية إلى اللاتينية جعلتها تبدو أكثر علمية مما لو كانت مكتوبة في الإنكليزية وساعدت على إظهار المحللين النفسيين في الولايات المتحدة بصورة أكثر احتراماً.

مصور من أول طبعة إنكليزية لكتاب الأنا والهو يظهر مفهوم فرويد عن المكونات المختلفة للعقل.

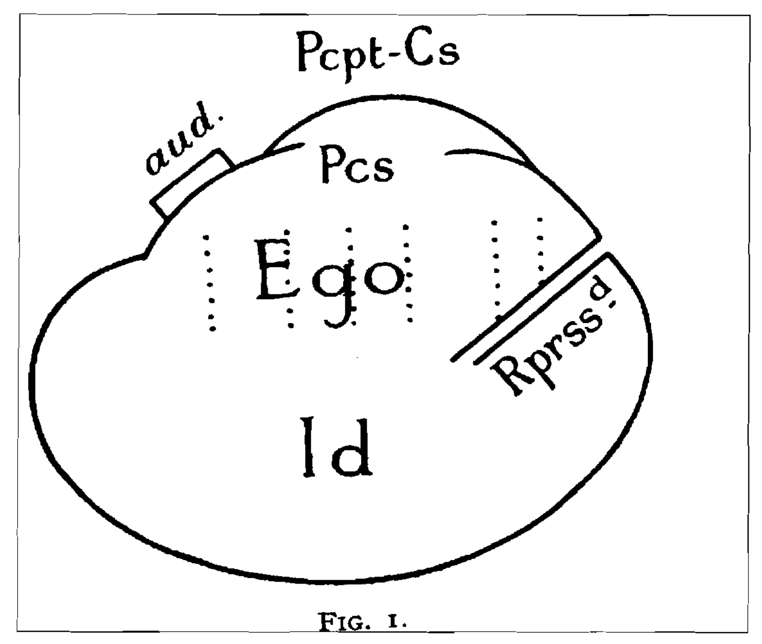


FIG. 1.

وفي ورقتي بحث كتبهما فرويد بين عامي 1923 و1925 باشر فرويد في معاينة موضوع الجنسية الأنثوية مرة أخرى. كان كثير من المحللين وبخاصة هيلين دوتش Helene Deutsch وميلاني كلاين Melanie Klein، وكارن هورني Karen Horney وكاتب سيرة فرويد إرنست جونز يستكشفون النمو الجنسي عند المرأة. إذ من الواضح أن الجنسين ينموان على نحو مختلف، وكان السؤال هو كيف يحدث ذلك؟

قدم فرويد فكرة المرحلة الجديدة في الجنسية البشرية، هي المرحلة القضيبية. وأكَّد على أن كلاً من الصبيان والبنات الصغار يعتقدون أن لكل واحد منهم قضيباً. عندما يحل الصبي عقدته الأوديبية يخشى أن يقوم

والده بالقضاء على قضيبه. تضمن هذه الرهبة أن يشكل الصبي أنا أعلى قوي، أما البنات، من ناحية أخرى، فقد تعرضن مسبقاً للخِصاء.

استخدم فرويد العوامل الاجتماعية لتفسير التغيرات التي تمس البنات، فقد كتب في بحث عنوانه «حل عقدة أوديب» عام 1924 «يبدو أن هذه التغيرات ناجحة عن التربية وعن الترهيب الذي تتعرض له من العالم الخارجي والذي يهددها بحرمانها من الحب».

بعد مرور عامين عبر فرويد عن آراءه بصراحة فيما كتبه تحت عنوان «بعض النتائج النفسية للاختلاف التشريحي بين الجنسين»: «لا يستطيع المرء أن يقاوم الفكرة القائلة بأن ما هو مقبول أخلاقياً بالنسبة للمرأة هو ليس كذلك [بالنسبة للرجل] إذ أن ما تبديه من شعور بالعدالة هو أقل مما يبديه الرجل، وميلها إلى الخضوع إلى متطلبات الحياة الكبرى هو أيضاً أقل من ميل الرجل، وتنقاد في قراراتها بعواطفها الرقيقة أو العدوانية أكثر من الرجل». زعم فرويد أن عقدة أوديب عند المرأة تنتهي مع رغبتها في إنجاب طفل لأبيها هذه الرغبة التي تبدأ المرأة بالإقلاع عنها تدريجياً. إلا أنه تبقى هناك أسئلة محيرة:

لماذا يتوجب على البنات هجران أمهاتهن بأي شكل من الأشكال؟

ولماذا يتوجب عليهم أن يهمُّوا بمحبة آبائهن؟

وهنا يقدم فرويد واحداً من أكثر مفاهيمه فُحشاً: ألا وهو حسد القضيب إذ عندما ترى البنات أنهن لا يملكن القضبان المدللة التي يملكها إخوانهن يبدأن بالشعور بالدونية، ثم يرفض أمهاتهن اللائي يمكن أن يكونن قد نزعن عن بناتهن قضبانهن أو سمحن لبناتهن بأن يولدن ناقصات. بعد ذلك تصبح البنات متيمات بآبائهن ذوي القضيب. وكما ورد في كتابات فرويد: «في الوقت الذي تم فيه القضاء على عقدة أوديب عند الصبي بواسطة عقدة الخصاء فإن عقدة البنت منشؤها عقدة الخصاء ذاتها».

أما أتباع فرويد وبخاصة إرنست جونز ومجموعة صغيرة من المحللات النفسيات اللاتي تجمعن حوله، لم يكنّ مقتنعاتٍ تماماً بما ذكره فرويد حول هذا الموضوع. وكما ورد في كتابة هيلين دوتش فيما بعد:

> «يبدو أنه من المحتمل أن يشكل رضى ذو منشأ خارجي أو بالصدفة [وهي ملاحظة البنت افتقادها للقضيب] بالضرورة جزءاً أساسياً في تشكيل شخصية الأنثى».

أما كارن هورني المحللة النفسية الألمانية فقد قرأت ورقة بحث في المؤتمر الدولي للتحليل النفسي في برلين عام 1922 وبينت فيها أنه قد تكون النرجسية الذكرية عند المحللين النفسيين هي المسؤولة عن افتراض عدم رغبة النساء في أن يَكُنَّ إناث، وتابعت هورني لتبين في سلسلة من البحوث أن «الهاجس الأنثوي الأكبر» هو أن تتعرض الأنثى للاغتصاب من قبل والدها وأن تنجب منه طفلاً وليس أن يكون لها قضيب. اعتقدت كل من ميلاني



فرويد مع ابنته أنّا وطفل مجهول الهوية. كرست أنّا فرويد حياتها لأبيها ولأعماله كما أصبحت محللة نفسية مشهورة بحق.

كلاين وإرنست جونز أن المرحلة القضيبية عند البنات ليست جزءاً من النمو الطبيعي وإنما هي عرض عُصابي. إذ تشتهي البنات قضيب الأب ويصل بهن الأمر إلى كراهية أمهاتهن لأنهن منافسات لهن لا لأنهن تعرضن للخصي.

لم ينتظر فرويد طويلاً ليخرج من هذه المناظرة، ففي شهر آب من عام 1922 انتحرت ابنة شقيقته كاسيلي غراف Caecilie Graf، إذ كانت حاملاً من غير أن تكون متزوجة وماتت من تناولها لجرعة دوائية زائدة. شكل موتها صدمة إلى فرويد مثلما فعل موت هينيل Heinele ابن ابنته

الراحلة سوني بعد أقل من عام. في شهر شباط من عام 1923 دخل فرويد مرحلة عذاب استمرت معه نهاية حياته. فقد تم تشخيص مرض السرطان عنده.

وبعد تحمل عشرات السنين من تدخين السيجار، تمرد جسم فرويد عليه وظهر على سطح فمه تورم مؤلم فظن أن ذلك هو ورم خبيث. وحينما استشار طبيبه الخاص، ارتكب فرويد خطأً في الطلب من طبيبه أن يساعده على «الاختفاء من هذا العالم بوقار» إن كان سيعاني من غير فائدة. اعتبر طبيب فرويد هذا الطلب بمثابة تهديد بالانتحار. واكتفى بإعلامه بوجوب إزالة الورم والتوقف عن التدخين. وفي الحقيقة كان فرويد يعاني من السرطان، بعد ذلك استشار فرويد اختصاصياً في الأنف وليس جراح فم، كما يتطلب المنطق، وكانت المعالجة غير ناجحة. كما أخفق زملاء فرويد في إخباره الحقيقة. ولم يعلم فرويد عن تشخيصه حتى شهر أيلول، بعد أن قضى إجازة في روما مع ابنته أنَّا. خضع فرويد لعملية إزالة الورم السرطاني وتم التلاؤم مع جراحة ترقيعية وهي إضافة صفيحة فكية صناعية بحيث استطاع أن يعاود تناول الطعام والتكلم.

وفي المحصلة، خضع فرويد إلى أكثر من 30 عملية جراحية، علاوة عن العمليات الترقيعية والتجريفية على مدى 16 عاماً. وبالرغم من كل ما حدث له لم يتوقف عن تدخين السيجار.

وفي عام 1897 كان قد كتب إلى فليس أن جميع أنواع الإدمان هي بدائل عن الاستمناء.

كان فرويد يعلم أنه مدمن على السيجار لكن تحليله لنفسه لم يساعده على الإقلاع عن ذلك. حتى حينما يعرف العقل الواعي أن هناك مشكلة، يستمر اللاشعور في ممارسة تأثيره اللاعقلاني.

ومن حسن الطالع، أن كان لفرويد مصدر دعم قوي خلال جميع محنه وتجاربه فقد قررت ابنته الصغرى أنَّا أن تُكرس حياتها لأبيها. تم إعداد أنَّا كمعلمة ومارست التعليم لبعض الوقت في مدرسة للبنات. وفي عام 1916 عندما صار عمرها 21 سنة، حَضَرَتْ محاضرات فرويد التمهيدية عن التحليل النفسي وقررت أن تصبح محللة نفسية. أخبرت والدها أنها راغبة في الدراسة في كلية الطب لتكون طبيبة، لكنه أقنعها بأن تكون محللة عادية من غير إعداد طبي رسمي. وفي عام 1918 أدخلها في عملية التحليل.

كان فرويد قد حذَّر مريديه من إجراء التحليل النفسي على الأصدقاء والأصحاب المقربين. فكيف يمكن أن يكون محايداً مع ابنته؟ كيف يمكنه أن يساعدها على استقلالها عن الصراعات المكبوتة ذات الصلة بأبويها من خلال عملية الإنقال؟

إن عملية إنقال الليبيدو إليه يعني ببساطة أنها سترجع الليبيدو إلى أبيها مرة أخرى، مما سيعمق الصراع عندها.

بعد الحرب العالمية الأولى، شرع معظم طلاب التحليل النفسي في الخضوع إلى تحليل نفسي تدريبي هدفه فهم أنفسهم ومعرفة كيف يبدو التحليل النفسي من وجهة نظر المريض.

وكان على أنّا أن تخضع هي أيضاً إلى واحد من هذا التحليل، إن هي أرادت أن تصبح محللة نفسية. وربما كان مقلقاً بالنسبة إلى فرويد أن يرى هواجس ورغبات ابنته اللاشعورية تتكشف أمام محللين آخرين على نحو محرج.

كان تعلق أنّا فرويد العاطفي بأبيها قوياً، إذ كانت طفلة فرويد الوحيدة التي قررت الخوض في مجال عمل أبيها.

كانت ترى في أحلامها أن أبيها كان ملكاً وكانت هي أميرة وكان الناس يحاولون أن يبعدوها عن أبيها. وحينما أصبح فرويد مريضاً أصبحت هي وليست أمها الممرضة الرئيسة التي تعنى به، وتنام معه في غرفة المشفى وتركب له العضو الصناعي في فكه. ومن جهته لم يشجع فرويد واحداً على الأقل ممن تقدموا في طلب يد أنّا (وهو إرنست جونز) عندما كانت في عمر 19 عاماً، زاعماً أنها «لا تزال بعيدة عن الإحساس بالرغبة الجنسية» كتب جونز رسالة مؤثرة إلى فرويد في عام 1914 قائلاً، إن أنّا «سوف تصبح بكل تأكيد امرأة عظيمة فيما بعد، شريطة أن لا يؤثر عليها كبتها الجنسي. فهي بكل تأكيد متعلقة بك إلى حد بعيد».

مهما كان تعلق أنّا المسكينة بأبيها، فقد حققت مراتب عليا في دوائر التحليل النفسي. ففي عام 1922 قدمت أنّا فرويد إلى جمعية ڤيينا للتحليل النفسي بحثاً علمياً حول هواجس أن يأكلك الآخرين ذات صلة بممارسة الاستمناء، وأصبحت بسرعة عضواً كاملاً في الجمعية. مع مرور الزمن بدأت أنّا بتمثيل أبيها في المؤتمرات الدولية عندما كان يشعر أنه لا يستطيع السفر. استمر فرويد في قلقه من عدم وجود أصدقاء إناث لأنّا، وكانت تشعر أنّا بالقلق مما يختلج في صدر أبيها. إذ أقلق فرويد استمرار ابنته في الاعتماد العاطفي عليه، لكنه لم يعرف سبيلاً لوضع حد لذلك وربما لم يكن يرغب في ذلك. وبما أنه قام بتشجيع أنّا لكي تصبح محللة، فقد شعر بالاعتزاز في الدفاع عما اختارته لنفسها.

في بواكير العقد الذي يبدأ بعام 1920 أخذ يذيع صيت فرويد بسرعة. وقبل الحرب العالمية الأولى كان معظم المحللين النفسيين قد تدربوا على يد فرويد شخصياً أو أحد أقرانه المقربين. وكان هناك في ذلك الوقت معاهدٌ للتحليل النفسي في نيويورك ولندن. فكيف كان على الجمعية الدولية للتحليل النفسي التأكد من مراعاة مبادئها ومعاييرها؟ كان لهذا السؤال أهمية خاصة في البلدان الناطقة باللغة الإنكليزية. إذ أخذ المحللون النفسيون، الذين كان لهم أسلوبهم الخاص في التحليل ولم يخضعوا للتدريب المحترف يعلقون اللافتات في كل مكان. وكان المتخصصون الأكاديميون والطبيون في الولايات المتحدة

يصدرون تعليقات من مثل ما قاله إم. ماكين كاتل، رئيس الجمعية الأمريكية للتقدم العلمي عن التحليل النفسي أنه «ليست المسألة مسألة علم بمقدار ما هي مسألة ذوق. فالدكتور فرويد هو فنان يعيش في أرض الأحلام بين وحوش منحرفين جنسياً».

وفي مثل هذه الأجواء كتب فرويد «في مسألة التحليل غير المدرسي» عام 1926. وفيه أيد فرويد بقوة التحليل غير المدرسي الذي هو مهنة ابنته. كما كتب فرويد إلى أحد الأصدقاء قائلاً «أريد حماية التحليل من الأطباء». زعم فرويد أنه يفتقد إلى الصلاحية الطبية المناسبة. وتلك الشهادة الطبية ليست فقط غير ضرورية لممارسة التحليل بل إنها تسببت في معاملة الأطباء بطريقة منحازة.

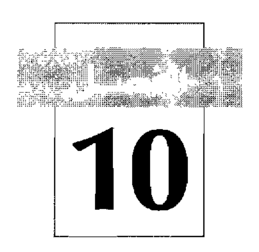
كما أعلن فرويد فيما كتبه في شهر تشرين الأول من عام 1927 قائلاً «لقد كان الأطباء هم الوحيدون من بين المحللين الذين كانت عندهم رغبة زائدة عن اللزوم في الانخراط في بحوث هي أقرب للبحوث العضوية منها للبحوث النفسية».

على أية حال لم يكن فرويد امبراطور التحليل النفسي كما كان في وقت من الأوقات إذ استمرت جمعية نيويورك للتحليل النفسي في اشتراط الحصول على الإجازة في الطب قبل الحصول على التدريب في التحليل النفسي. واستندت في موقفها ذلك على أنه من المرغوب فيه سياسياً ومالياً السماح فقط لمحترفي مهنة الطب أن

يمارسوا التحليل النفسي وأن ينالوا أجوراً مالية على أتعابهم. حتى إن كارولين نيوتن التي مرت على التحليل مع فرويد وترجمت كتابات أوتو رانك إلى اللغة الإنكليزية منعت من الانضمام إلى الجمعية. إن الرفض الأمريكي لتدريب محللين ليسوا أطباء كان له تأثير على استبعاد النساء من هذه المهنة في الولايات المتحدة.

وفي المقابل، كانت الجمعية البريطانية للتحليل النفسي تدرب المحللين العاديين (غير الأطباء)، وفي أعوام العشرينيات من القرن العشرين، لم يكن حوالي 40٪ من محللي إنكلترا أطباء. وفي أماكن أخرى، وقفت الجمعية الهنغارية للتحليل النفسي إلى جانب فرويد، بينما استمرت جمعية ڤيينا في الاختلاف معه.

وقبيل عام 1929، كان إبراهام بريل Abrham Brill رئيس جمعية نيويورك للتحليل النفسي منزعجاً من انحراف الجمعية عن خط فرويد. ووافق بريل، مبتدأً بحذر حركة تحليل نفسي خاصة به على السماح لبعض الأشخاص العاديين بمباشرة التدريب على التحليل النفسي. حتى الأمريكان كان عليهم أن يعترفوا في النهاية بأنه ليس للتحليل النفسي صلة بعلم الأحياء الطبي.

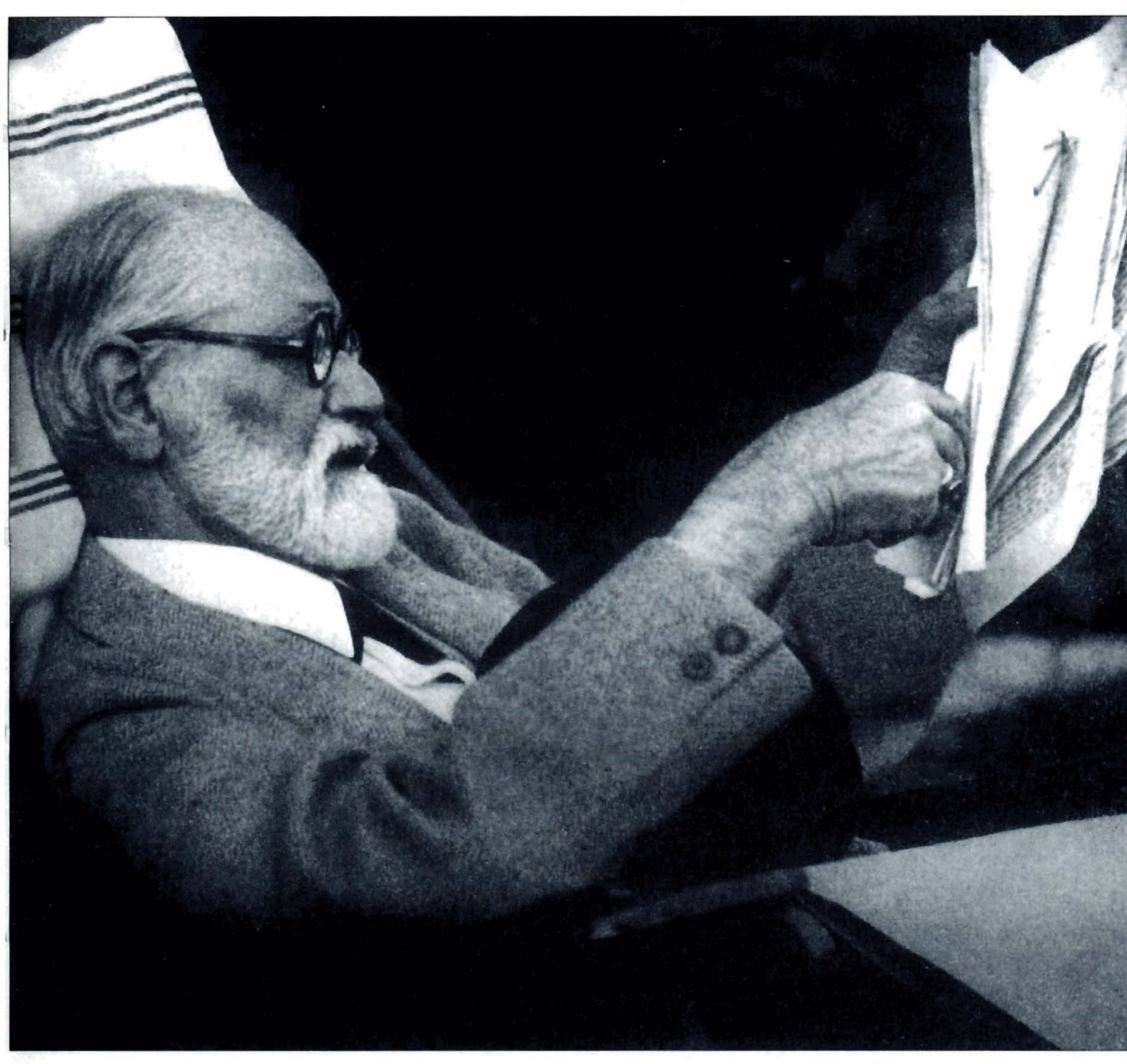


10

الإرهــاق

أصبح فرويد نجماً وبخاصة في أميركا. ففي عام 1924، عرضت عليه جريدة شيكاغو تربيون مبلغ 25,000 دولار لكي يحلل شخصيتي نيثان ليوبولد Nathan Leopold وريتشارد لوب Richard Loeb اللذين شرعا وهما طالبان جامعيان في ارتكاب «الجريمة التامة» وخطفا ثم قتلا صبياً يبلغ من العمر 15 عاماً في شيكاغو. وفي نفس العام، عرض المنتج السينمائي في هوليوود ساموبل غولدوين Samuel Goldwyn على فرويد مبلغاً قدره 100,000 دولار ليستشيره في قصة حب ستعرض على الشاشة الذهبية، واصفاً فرويد «أعظم اختصاصي حب في العالم» وقد رفض فرويد كلا العرضين.

ازداد بال فرويد انشغالاً بكيفية تطبيق التحليل النفسي



فرويد مسترخياً عام 1932 في منزل ريفي خارج ڤيينا تمتلكه ابنته أنَّا. وقبل ذلك كان يعاني من ألم مبرح، ومن فك اصطناعي حصل عليه بعد عمل جراحي لإزالة ورم في فكه.

على المجتمع وكما كتب في دراسة (السيرة الذاتية) في عام 1925، «لقد أدركت بشكل في غاية الوضوح أن أحداث التاريخ البشري والتفاعل بين طبيعة الإنسان والتطور الثقافي وترسبات الخبرة البدائية (أكبر مثال بارز على ذلك هو الدين) ليسوا أكثر من انعكاس الصراعات الديناميكية بين الأنا، والهو، والأنا الأعلى، إنها دراسات التحليل النفسي في الفرد - هي تماماً نفس العمليات مكررة على نطاق أوسع».

في عام 1927، نشر فرويد كتابه (مستقبل الوهم)، وهو محاولة للتقصي عن أصل الدين.

استهل فرويد الكتاب بمناقشة العلاقة بين المجتمع والفرد. أما الثقافة فهي، وفقاً إلى فرويد، موجودة لكي «تتحكم بقوى الطبيعة» ولكي «تنظم علاقة الإنسان بالإنسان». إذ يتوجب على الأفراد أن يكظموا رغباتهم في سبيل المجتمع. ومع ذلك يقف البشر عاجزين أمام الفياضانات الطبيعية والزلازل والأوبئة. رأى فرويد أن علاقة البشر مع الطبيعة شبيهة بعلاقة الطفل مع أبويه. إذ يعيش الأطفال تحت رحمة آبائهم الأقوياء الذين يفترض منهم حماية أطفالهم. وحينما يكبر الأطفال يحولون صلتهم مع آبائهم إلى صلة مع الله لكي يرضوا نفس الحاجات الطفولية التي كان يلبيها الآباء حينما كان الأطفال في المرحلة المبكرة يؤمنون بقدرة آبائهم. فالدين كما كان يراه فرويد بإيجاز هو وهم يعبر عن الرغبة في الحصول على حماية أبوية سرمدية.

زعم فرويد أن الدين لم يجعل الإنسان التقي سعيداً أو لم يساعد الناس على التكيف مع الحضارة. إذ صرح بأن «عدداً هائلاً من الناس غير راضين عن الحضارة وليسوا سعداء بها ويشعرون كما لو أنها قيد ينبغي إزاحته». وفي المقابل كتب فرويد «تشكل الروح العلمية موقفاً معيناً تجاه القضايا الدنيوية. . . فكلما زاد عدد الرجال الذيت تفتح أمامهم كنوز المعرفة كلما زاد عدد الذين يقعون خارج نطاق الاعتقاد الديني».

مرة أخرى يلفت فرويد الانتباه إليه في الولايات المتحدة محفزاً على ظهور عناوين مقالات من مثل «الدين يدين مزاعم فرويد» في صحيفة نيويورك تايمز في شهر كانون الأول عام 1927. شجب رجال الدين كتاب فرويد وكتب أوسكار فيستر القس البروتستانتي وصديق فرويد الشخصي، رداً مهذباً عنوانه «وهم المستقبل». كما شجب المعادون للسامية فرويد لمحاولته القضاء على الديانة المسيحية. واتهم كل واحد فرويد لمحاولته تقويض الأخلاق العامة، مبتدئاً بنظرياته عن الجنس والآن من خلال إنكار الله.

في هذه الأثناء، أخذ فك فرويد الاصطناعي بالتسبب له بالآلام المبرحة. فكان يجد في معظم الأحيان صعوبة في التكلم أو في تناول الطعام وغالباً ما كان يعيش مع الألم. تذكرت إحدى تلاميذ فرويد الشباب، ماريس تشويسي Maryse Choisy فرويد يتحدث عن مستقبل

الوهم، قائلاً «هذا هو أسوأ كتاب لي! . . . إنه ليس كتاباً من كتب فرويد. . . إنه كتاب رجل يعاني من الشيخوخة! زد على ذلك أن فرويد هو ميت الآن، وصدقيني، إن فرويد الحقيقي هو رجل عظيم. وأنا بالتحديد متأسف من أجلك لأنك لم تعرفيه جيداً».

بعد إصابته بمرض السرطان توقف فرويد عن كتابة تاريخ الحالة وركز جُلَّ اهتمامه فقط على مسائل فلسفية كبيرة في التحليل النفسي والثقافة. كما خفض حجم الحالات التي كان يعالجها بشكل حاد هاجراً العلاقات الإنسانية ومنسحباً إلى الكتابة المدرسية ذات الطابع غير الشخصي. لقد توقف تقريباً عن معالجة الأفراد، إلا باعتبارهم رموزاً مجردة.

وعلى الرغم من أن جسم فرويد أصبح أسير مرض السرطان فقد باشر العمل على كتاب جديد هو (الحضارة ومنغصاتها) الذي نشره في عام 1930. وعلى نحو مشابه لكتاب (مستقبل الوهم) يتحدث كتاب الحضارة عن التفاعل القائم بين الفرد والدين والثقافة. استهل فرويد الكتاب بافتراض أن البشر ليسوا سعداء. فقد كتب، إننا إن لم نكن مهددين بالعواصف والزلازل والطاعون فإننا نراقب أجسامنا وهي تتداعى مترقبين الموت. ويتابع فرويد قائلاً، نحاول أن نبحث لأنفسنا عن السلوى بطرائق شتى، فتارة نجد سلوانا في الدين وتارة أخرى نجدها في العمل. ومهما بذلنا من هذه الجهود فإنها سوف تخيب

في النهاية. والناس عندما يكونوا غير سعداء يصبحون معادين للحضارة، ويستشهد فرويد من المقاومة الحديثة للعلم على أنها مثال على هذه المعاداة. لم يستطع التقدم في التقانة أن يجلب السعادة للناس، فقد تعامل البشر مع بعضهم البعض بقسوة مدمرة. إن أكبر إسهام قدمته الحضارة لتحقيق السعادة الإنسانية هو أن تحمي الناس من النوايا السيئة لجيرانهم.

تمنع الحضارة، كما يدعي فرويد، من أن يقتل البشر بعضهم البعض. وفي هذا التوقيت يكون فرويد قد قَبِلَ بدافع العدوان على أنه جزء من أجزاء النفس البشرية. العدوان، كما كتب فرويد، ليس مجرد دافع بل هو متعة يصعب على المرء الإقلاع عنها بعد أن استمتع بها في وقت من الأوقات. كما يمكن للعدوان أن يوحد الجماعة. إذ يصبح أفراد جماعة ما أوثق عروة مع وجود جماعة أخرى يمكن أن يكرهوها. أما الحب فهو محدود كما يراه فرويد، وعدو للحضارة. إذ تعمل الحضارة من ناحية أخرى على تقويض الحب عن طريق تقييده بالقوانين والمحرمات.

تفرض الحضارة قوانينها عن طريق نوع من «الأنا الأعلى الثقافي». ومع إنماء الطفل لأناه الأعلى عن طريق استدخاله لمعايير أبيه المسلكية في نفسه سوف يتبنى، بوضع عضواً في هذا الجو الثقافي، محرمات المجتمع. والجدير ذكره، هو أنه كما هو الحال بالنسبة للبشر الذين

يظهر عندهم العصاب عندما يكون هناك صراع بين مطالب الأنا الأعلى ومطالب الهو يمكن للثقافات أيضاً أن تصبح مريضة نفسياً. أشار فرويد إلى قدامى بني إسرائيل الذين عاقبوا أنفسهم على ارتكابهم الإثم وذلك عن طريق ابتداعهم لدين متنطع وصارم فيه أنبياء يلقون باللائمة على الذات وفيه قوانين متشددة.

هناك عَرَضٌ واحد يلخص علاقة الإنسان بالحضارة وهو: الشعور بالذنب. يساعد المجتمع على ضمان بقاء الإنسان على قيد الحياة إلا أن ذلك لا يتم إلا على حساب إجبار الأفراد على خيانة غرائزهم. وما الشعور بالذنب إلا تعبير عن القلق الناجم عن هذه المساومة.

تضمن الحضارة للبشر أن يكونوا غير مطمئنين على الدوام. في عام 1930 حاز فرويد على جائزة غوته Goethe Prize، وهي جائزة تقدمها مدينة فرانكفورت في ألمانيا لأولئك الذين يقدمون إسهامات عظيمة للثقافة. كان فرويد في غاية السعادة وقد حصل على مبلغ 10,000 مارك مرفقاً بالجائزة. وكان على فرويد أن يرسل ابنته أنّا نِيابة عنه لحضور الاحتفال إذ لم يتح له مرضه الشديد فعل ذلك. في عمر 74 سنة أضحى فرويد رجلاً عجوزاً ومريضاً وكان طبيبه المختص بجراحة الفم يجري له فحوصات دورية مخافة أن يعود مرض السرطان إليه وأقلع فرويد أخيراً عن تدخين سيجاره المفضل.

في نفس هذا العام توفيت والدة فرويد عن عمر 95

سنة. لم يهتز فرويد لهذا الحدث مثلما فعل بعد وفاة والده. وعوضاً عن ذلك أحس بالارتياح، الارتياح من أن أمه سوف لن تعاني من المرض والارتياح في أنه يستطيع أن يموت من غير أن يسبب لأمه العذاب. كتب فرويد إلى إرنست جونز بأنه شعر «بنمو في حريته الشخصية» «نظراً لأن مجرد التفكير بأن [أميليا] سوف تعلم عن موتي كان أمراً مقيتاً» وبالرغم من احتمال شعور فرويد بالحرية، فقد أصبح مقيداً أكثر من أي وقت مضى. وبإجراء عملية أخرى للفك في عام 1931 أضحى فرويد غير قادر على السفر ليعود إلى مسقط رأسه، حيث وضع له لوحة تذكارية باحتفال مهيب على بيته الذي ولد فيه.

في عام 1931، شل الركود الاقتصادي الكبير أوروبا. ومع ذلك استطاع فرويد من خلال دخله من الجوائز العلمية، ومن عائدات كتبه ومن ممارسته جزءاً من وقته في التحليل النفسي، أن يعيل كلاً من أسرته وأصهاره. جعلت الشدة الاقتصادية، في ألمانيا والنمسا، الناس العاديين متقبلين لأي حل مهما كان، وكان أدولف هتلر قد عُيِّن مستشاراً لألمانيا في عام 1933. وخلال ستة أشهر نظم حزبه النازي في أنحاء البلاد عملية إحراق الكتب التي ألفها اليهود والديمقراطيون واليساريون بما في ذلك كتب ألبرت آينشتاين وفرانز كافكا وتوماس مان وفرويد ذاته.

لم يحرك انزلاق ڤيينا البطيء نحو الديكتاتورية فرويد

من أجل أن يرحل عن البلد. أما أصدقاء فرويد في الخارج الذين كانوا أكثر إدراكاً بخطورة الوضع، فقد بدؤوا يرسلون له عروضاً باللجوء السياسي، لكن فرويد قاوم ذلك. إذ كان مرتاحاً في ڤيينا وعاش في نفس المنزل قرابة 40 عاماً ولديه أصدقاء وأقارب ممن كانوا يهتمون بأمره.

كان فرويد متعباً أيضاً، وفي عام 1937 نشر مقالاً بعنوان «التحليل المتناه وغير المتناه» Analysis Terminble and Interminable وهو إعادة نظر في علاج التحليل النفسي.

ضباط نازيون في ألمانيا يحيطون بمجموعة من اليهود ليصار إلى نقلهم إلى معسكر اعتقال. شغل بال أصدقاء فرويد وزملائه قيام النازية في ألمانيا وحثوا فرويد على الهروب.



توصل فرويد إلى الاعتقاد أن التحليل النفسي سلاح ضعيف إذا ما قورن بقوة الدوافع النفسية وبخاصة دافع الموت. إذ لم يكن التحليل النفسي عاجزاً فقط عن علاج بعض المرضى، بل كان على العديد من المرضى الذين خضعوا لتحليل نفسي ناجح أن يعودوا إلى حضور مزيد من الجلسات بعد انتكاستهم. كما لزم لبعض المرضى أن يواصلوا حضور جلسات التحليل النفسي طوال حياتهم. في نهاية المطاف رأى فرويد أن التحليل النفسي ليس في المقام الأول علاجاً بل هو طريقه في البحث وأصبح أكثر اهتماماً في اكتشاف الدوافع العميقة التي تقف وراء السلوك البشري وقوانين الحضارة أكثر من علاج كرب شخص واحد.

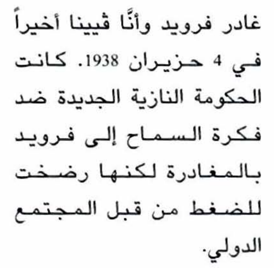
في الوقت الذي كان فيه فرويد يتساءل عن جدوى العلاج الذي اخترعه بنفسه، كانت النمسا تتهاوى. ورأى تلاميذ فرويد الأكثر دراية في السياسة أنه سيستولي النازيون عاجلاً أم آجلاً على النمسا.

وخلال سنوات الثلاثينيات من القرن العشرين هرب هؤلاء التلاميذ تاركين فرويد في عزلة متزايدة. أصاب هذا التشتت فرويد بالرعب. إذ من الذي سيبقى في ڤيينا ليحمي التحليل النفسي إذا لم يبق هو؟ لقد أصبح حال التحليل النفسي الآن كحال اليهود في الشتات مبعثرين في أرجاء العالم بلا وطن حقيقي. تذكر هيرمان ننبيرغ Herman Nunberg، أحد المحللين الشباب الذين غادروا

النمسا، فرويد وهو يقول له «طالما أنه ليس هناك خطر حقيقي، فإن حكومة النمسا الحالية سوف تحمي اليهود ولن ترضخ للنازيين. أما بالنسبة له، كما قال، فهو رجل مسن ومريض، وڤيينا هي وطنه وفيها أطباؤه الذين يعرفونه معرفة جيدة ويحتاجهم أيما حاجة».

في 11 آذار من عام 1938، سمح مستشار النمسا للقوات الألمانية بعبور الحدود وبضم النمسا. وعلى الفور من حدوث ذلك تقريباً باشرت عِصابات نمساوية بنهب المحلات والشقق اليهودية وضرب اليهود في الشوارع. سارع النازيون في التوجه والبحث عن منزل فرويد ودار نشر ڤيينا للتحليل النفسي، آخذين المال وما أمكنهم أن يجدوه من الأوراق. تذكر مارتن فرويد ردة فعل أمه، الحافظ الأمين على المنزل الأنيق، أثناء إحدى الإغارات على منزلها: «الـ. . . مشهد. . . لأم، وهي ساخطة جداً على رجل SS، الذي وهو في طريقه من خلال ممر توقف عند خزانة كبيرة وفتح أبوابها ثم بدأ يسحب بعنف أكوام البياضات المغسولة الجميلة التي رتبتها بعناية، ومن كل قلب ربة بيت حريصة، أحاطت كل حزمة منها بشريط ملون. من غير أن يبدو عليها أدنى علائم الخوف اقتربت أمي من الرجل وأخبرته بنبرة حانقة جداً تماماً بما كانت تفكر بسلوكه المستهجن في منزل سيدة وأمرته أن يتوقف حالاً. اندفع رجل الـSS إلى الخلف من مكان الخزانة وبدا مذعوراً تماماً وانسحب مسرعاً كالخروف بينما أعادت أمي ترتيب البياضات».





غادر فرويد وأنّا ڤيينا أخيراً في 4 حزيران 1938. كانت الحكومة النازية الجديدة ضد فكرة السماح إلى فرويد بالمغادرة لكنها رضخت للضغط من قبل المجتمع الدولي.

كان فرويد كارهاً المغادرة، فقد كان مسناً وضعيفاً وخائفاً من ألا يكون مقبولاً في بلدٍ أخرى. في عام 1938 لم يكن العالم متعاطفاً مع اللاجئين اليهود. طار إرنست جونز إلى ڤيينا لكي يقنع فرويد بالمغادرة وفي النهاية اقتنع بأنه من الممكن أن يهجر النمسا، طالما أن النمسا قد هجرته. وعلى الرغم من عدم رغبة الحكومة النازية الجديدة في أن تدع فرويد يغادر البلد، فقد كان

له أصدقاء من ذوي النفوذ القوي في المجتمع الدولي. بذل سفير الولايات المتحدة في فرنسا والقنصل الأمريكي العام في ڤيينا والأميرة ماري بونابرت Marie Bonaparte التي لها صلة قربى بمعظم الزعماء الملكيين في أوربا ـ وأصدقاء إرنست جونز في مكتب الخارجية البريطاني، قصارى جهودهم لنقل فرويد إلى إنكلترا. قبض على أنّا لكنها بقيت متنبهة لنفسها وأطلق سراحها. طالب النازيون بالمال لقاء سماحهم لفرويد بالمغادرة، فقامت ماري بونابرت بتسديد المال لهم. تم السماح إلى فرويد بمغادرة ڤيينا بتاريخ 4 حزيران 1938 من غير رجعة. ومع أنه تدبر أمر إنقاذ معظم أفراد عائلته الذين لا يزالون يعيشون في ڤيينا، فقد كان عليه أن يترك خلفه شقيقاته الأربع. تعرضت إحداهن للموت جوعاً في معسكر اعتقال ثيريسنستادت Theresienstadt أما الثلاثة الباقون فمن المحتمل أن يكونوا قد ماتوا في معسكر اعتقال أوشويتز Auschwitz.

وصل فرويد إلى لندن في 6 حزيران من عام 1938 واستقر بعد بضعة أشهر في منزل بالإيجار في ماريسفيلد غاردنز Maresfield Gardens، إحدى ضواحي لندن ـ وفي النهاية تم دفع فدية سرير وكتب ومجموعات فرويد التذكارية إلى النازيين ليصار إلى نقلهم إلى بريطانيا.

استطاعت المدبرة المنزلية التي كانت تعمل عند فرويد ومارثا أن ترتب التماثيل المحببة إلى فرويد على مكتبه

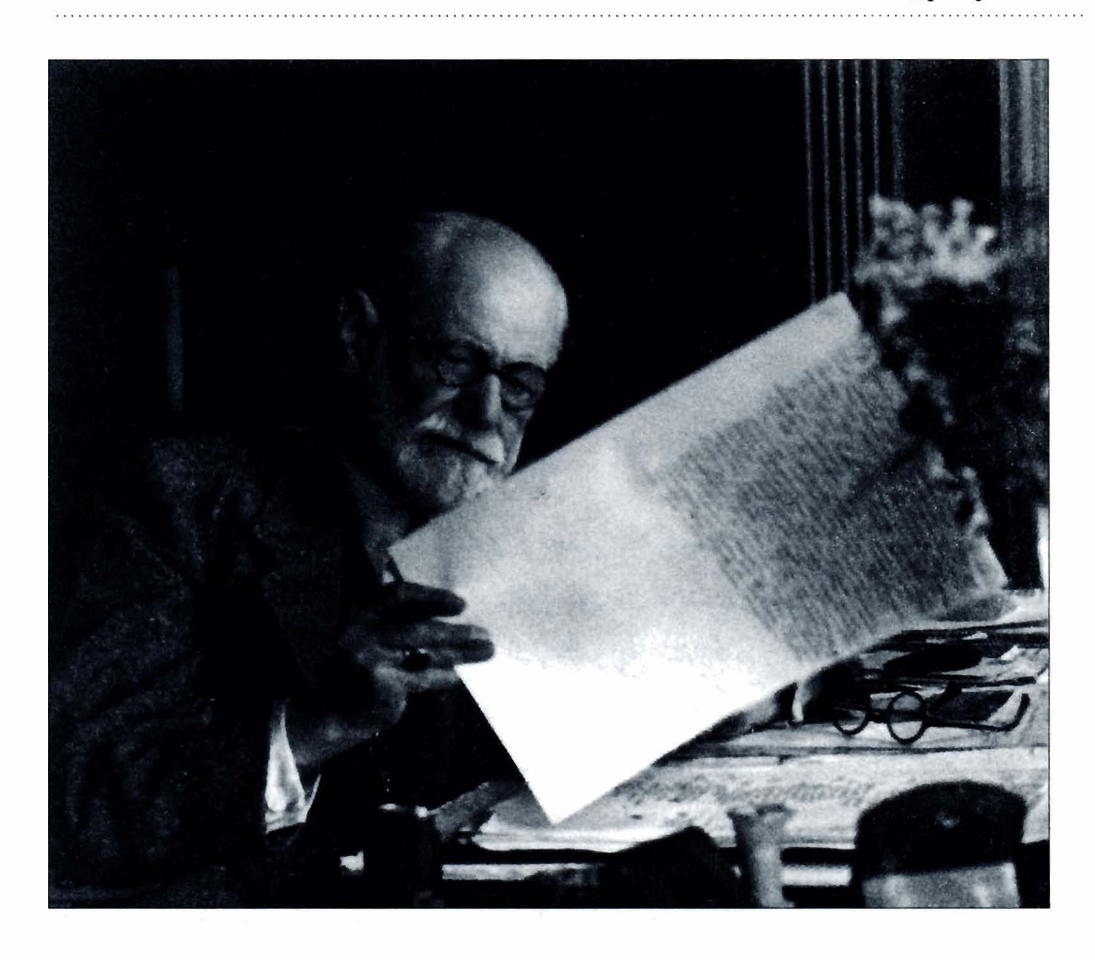
الجديد في نفس الطريقة تماماً التي كان يحتفظ بها في ڤيينا. وبالفعل لقد تم ترتيب كل المنزل وكأنه نسخة قريبة من حجرات منزل فرويد على شارع 19 بيرغاس وباشر فرويد تحليل بضع حالات مرضية بعد فترة وجيزة، لكنه استمر في حزنه وكآبته. وعندما ذكر له أحد الزائرين أن دراسته الجديدة مطابقة لدراسته القديمة في ڤيينا، رد عليه بضجر قائلاً «كل شيء هنا، وأنا الوحيد الذي لست هنا». كان كتاب فرويد الأخير (موسى والتوحيد) أكثر أعماله إثارة للجدل. إذ لم يكن كتاباً عن نظرية التحليل النفسي بالمعنى الدقيق. وأشار إليه فرويد ذاته على أنه «رواية تاريخية».

وبكتاب موسى والتوحيد عاد فرويد إلى موضوع اليهودية. فقد كان معجباً بموسى لسنوات طويلة كما كتب مقالاً عن تمثال مايكل أنجلو الرمز الإنجيلي العظيم. احتوى الكتاب على ثلاث مقالات ذات موضوع واحد: وهو أن موسى، الذي أخرج بني إسرائيل القدماء من العبودية في مصر، كان هو نفسه من طبقة النبلاء المصريين. اعتنق موسى عليه السلام الوحدانية، وهو الإيمان بأن لا إله إلا الله في الوقت الذي كان فيه معظم المصريين ينتمون إلى جماعات دينية وثنية. غيَّر موسى دين اليهود إلى التوحيد وخرج بهم من مصر إلى الأرض المقدسة. وهناك التقى العبرانيون بقبيلة تدعى أهل مدين الذين كانوا يعبدون إلاهاً اسمه يهوه وهو إله منتقم. بعد ذلك ثار اليهود على موسى وقتلوه، على حد زعم

فرويد. كانت الثورة على موسى بمثابة إعادة تمثيل لجريمة قتل الأب الأصلية القديمة. وبما أن اليهودية قد بدأت، كما يزعم فرويد، بالعودة إلى خبرة أولية مكبوتة، فإن من المحتمل أن تكون المسيحية أيضاً لباساً تنكرياً لفعلة أولية. وعلى الأغلب أن يكون عيسى [عليه السلام]، كما يزعم فرويد، قائد عصبة الأخوة الذين قتلوا أباهم منذ زمن طويل.

نشر فرويد هذا الكتاب وقد ساورته بعض الشكوك، فقد أثار قلقه الكيفية التي سوف يستقبل بها المجتمع اليهودي هذا العمل. كتب في رسالة إلى المؤرخ تشارلز سينغر Charles Singer. «لا داعي للتذكير، بأنني لا أحب أن أجرح مشاعر شعبي... ولكن ما الذي يمكن أن أفعله؟ فقد بذلت حياتي مدافعاً عندما كنت أعتقد أنه الحقيقة العلمية، حتى عندما كانت مريحة وغير سارة لأصحابي. لم أستطع أن ينتهي بي الأمر إلى التنصل منها».

وحدث ما توقعه فرويد، فقد تعرض للانتقاد على نطاق واسع بسبب كتابه موسى والتوحيد. وقال المعارضون أن كتاباته غير صحيحة تاريخياً واستنتاجاته جارحة. ومع ذلك راج بيع الكتاب وتمت ترجمته بسرعة إلى اللغة الإنكليزية. من حسن طالع فرويد أن تم ذلك بسرعة، فقد شارف فرويد على الموت بسبب معاودة مرض السرطان في خريف عام 1937، وأضحى غير قادر



فرويد مستغرق في الدراسة في منزله بلندن في عام 1938، قبل موته بعام واحد.

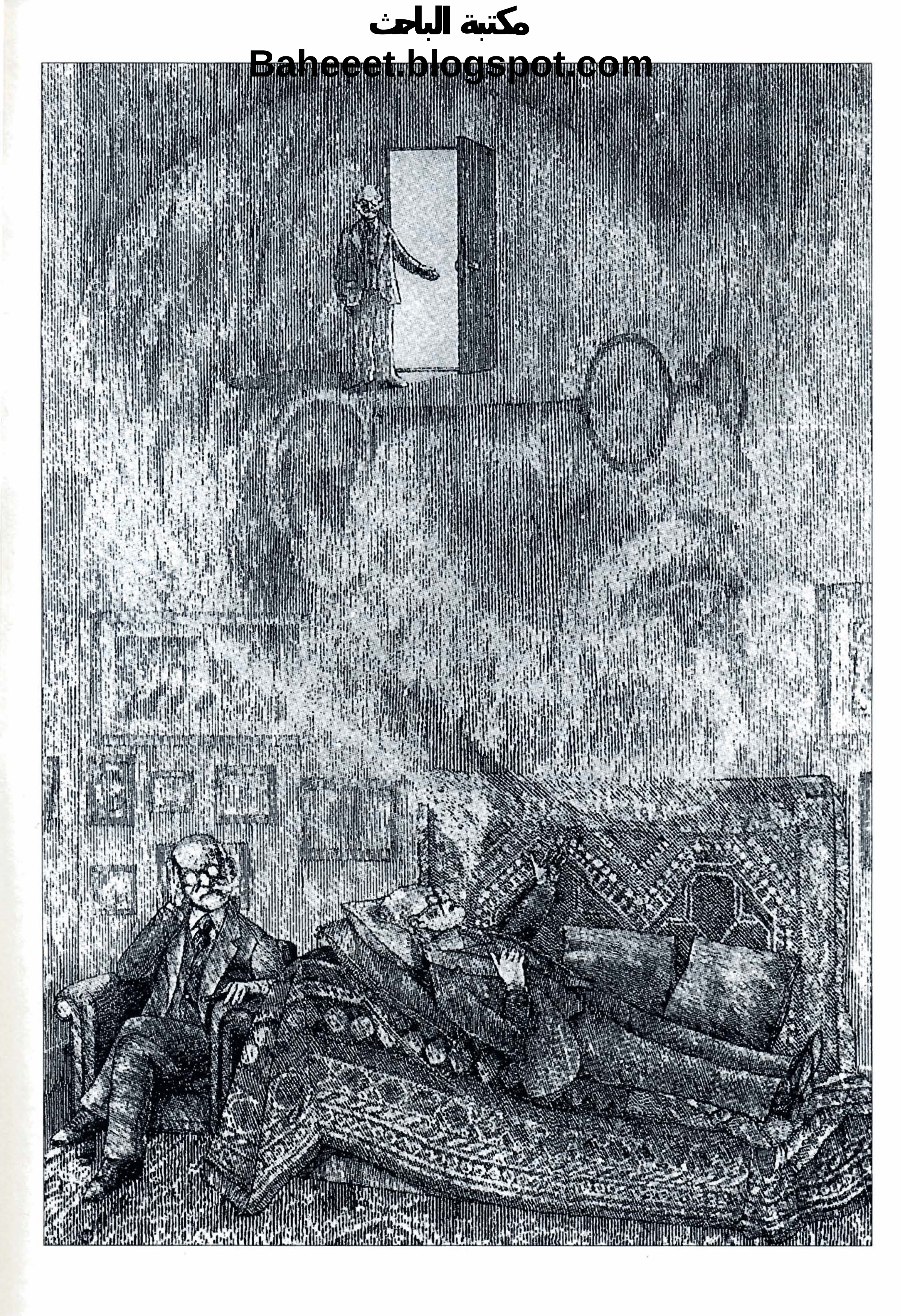
على تحمل علاجات جراحية أخرى. وفي شهر شباط من عام 1939 أعلن أطباؤه الجدد في لندن أن مرض السرطان عنده غير قابل للعلاج أو للإجراء الجراحي.

في شهر تموز توقف فرويد عن رؤية المرضى لكنه استمر في المطالعة، وكان آخر كتاب قرأه هو رواية لبلزاك، وهو نفس المؤلف الذي منع أخته من قراءة كتبه من قبل سنوات عديدة.

بدأ النسيج الخليوي السرطاني بالتقرح وبإصدار رائحة

مقيتة. واعتباراً من شهر آب وصاعداً أصبح كلبه يرفض الاقتراب منه. ومع ذلك شرع الرجل المحتضر بإجراء تعديل آخر على نظريته تحت عنوان «الموجز في التحليل النفسي» لكنه تخلى عنه، جزئياً لأنه كان يكابد ألماً مستمراً. كما رفض تناول الدواء، لأنه أراد أن يبقي ذهنه متوقداً. في 21 أيلول من عام 1939 طلب فرويد من ماكس شور Max Schur طبيبه الشخصي أن يساعده قائلاً: «الآن أصبح الأمر لا شيء إلا عذاب ولم يعد له معنى». وبعد التشاور مع أنّا، حقن شور فرويد بجرعة كبيرة من المورفين.

وعلى مدى اليومين التاليين، حقنه بجرعتين إضافيتين. وفي 23 أيلول من عام 1939 مات الدكتور سيغموند فرويد، مؤسس التحليل النفسي. خلافاً للتقاليد اليهودية، تم إحراق جثته ووضع رماده في جرته الإغريقية المفضلة. أما مارثا بيرنيز فرويد المخلصة فقد أشعلت للمرة الأولى منذ زواجها قنديل السبت اليهودي يوم الجمعة ليلاً.





الخاتمة

نقف أمام إنسان قد ترك عندنا انطباعاً بأنه عظيم، أليس حري بنا أن تهتز أجسامنا بدلاً من أن تقشعر فقط عندما نعلم أنه اكتسب عظمته من خلال زلاته فقط؟

ـ لو أندرياس ـ سالومي،
مجلة فرويد (1964)

لم تكن أعمال فرويد مثالية إذ لم يتسامح مع المشككين وطرد بعضاً من أكثر تلامذته موهبة من حركة التحليل النفسي لأنهم لم يظهروا احتراماً كافياً لأفكاره. لا تزال موضوعات بحوثه والطرائق التي استخدمها في التوصل إلى استنتاجاته مثيرة للجدل حتى هذا اليوم. ومع ذلك تجد الكثير من نقاد الأدب يستشهدون بما جاء في كتاب تفسير الأحلام لدعم نظرياتهم، بينما عارض بعض

وكما يوحي هذا الرسم من عام 1970، تبقى حياة وأعمال فرويد موضوعاً مثيراً للجدل. هل أفكار فرويد هي ببساطة من نتاج مخيلته وظروفه أم أنها تقدم للعالم طريقة جديدة لاكتشاف العقل؟

علماء الأحياء فكرة فرويد عن العقل البشري على أنها محض دجل، ليست جديرة حتى بالدراسة. في عام 1995 تم تأجيل معرض عن فرويد أعلن عن موعد افتتاحه في مكتبة الكونغرس (مجلس النواب) الأمريكي وكان من أسباب هذا التأجيل هو عجز أمين المكتبة عن إيجاد طريقة يرضي بها كلاً من المؤيدين والمعارضين للمذهب الفرويدي.

هذه هي المفارقة: فقد أثار فرويد حوله عاطفتين متناقضتين: ولاء شديد وحقد مرير. فقد منح تحليله الدقيق للسلوك البشري وعلاقته بالصراعات النفسية العميقة، الباحثون في علم أصول الأقوام وعلم التاريخ ونظرية الأدب والعشرات من التخصصات الأخرى، أدوات قيمة لتحليل الحياة والفن عند البشر. وعلى وجه التحديد، أعطى فرويد انتباهاً خاصاً إلى اللغة كما منحت نظرياته عن الأحلام والزلات (التي تم الاعتياد على الإشارة إليها بزلات فرويد) طلاب الأدب طريقة جديدة غنية في فهم الكلمة المكتوبة وفي نفس الوقت أثارت أعمال فرويد حنق كثير من العلماء والباحثون النفسيون والكتّاب المدافعون عن حقوق المرأة. لقد كانت طرائقه في البحث مختلفة جداً عن معظم الأعمال العلمية الأخرى، وبدا أن معظم السلوك يتوقف على خبرات الطفولة المبكرة، وكأنه طريقة تساعد الكبار على تجنب تحمل المسؤولية تجاه أفعالهم. شكلت بعض نظريات فرويد عن سيكولوجية المرأة حيناً بحق المرأة، وشجعت

المعالجين على النظر إلى المرأة على أنها ضعيفة وغير ناضجة. والأمر الأكثر ضرراً هو شعور بعض الناس أنه لا يمكن رصد مكونات الشخصية من مثل الهو أو الأنا إلا من خلال تقانات فرويد. إذ ليس هناك وسيلة تصور الدماغ فتكشف عن وجود الأنا الأعلى فيه. والوسيلة الوحيدة في الكشف عنه هي الاستدلال عن وجوب وجود الأنا الأعلى من آثاره. يبدو علم النفس الفرويدي لكثيرٍ من خصوم المذهب الفرويدي أنه يعتمد على الاعتقاد به أكثر من اعتماده على الدليل العلمي.

كتب ماكس غراف، العضو في جمعية الأربعاء النفسية ووالد «هانز الصغير» في مقالة تم نشرها في مجلة ربعية التحليل النفسي The Psychoanalytic Quarterly في عام 1942:

> «لقد كان هناك جو ديني في تلك الغرفة. كان فرويد ذاته هو النبي الجديد لهذا الدين الذي جعل. . . الطرائق السائدة في البحث النفسي تبدو خرافية. كان تلامذة فرويد ـ المؤمنون به ـ حواريوه. [نسبة إلى الأتباع الأوائل لعيسى المسيح]. . .
>
> بعد الفترة الحالمة الأولى والاعتقاد الذي لا يشوبه شك عند المجموعة الأولى من الحواريين، جاء الوقت الذي تأسست فيه الكنيسة. بدأ فرويد بتنظيم كنيسته بطاقة كبيرة.
>
> كان جدياً وصارماً في الشروط التي وضعها لتلامذته، لم يسمح بأي انحراف عن تعاليمه الأصلية. . . وإذا اعتبرناه مؤسساً لمعتقد يمكن عندئذ أن نعتبره مثل موسى عندما رجع إلى قومه غضبان أسفاً.

ليس هناك حلاً سهلاً للجدل القائم بين أنصار فرويد ومعارضيه. سيبقى فرويد مثيراً للجدل لأنه لا يزال واحداً من أكثر المفكرين تأثيراً في القرن العشرين. وحتى لو عاش فرويد إلى يومنا فلن يستطيع أن يباشر بحثه. إذ اختفت الهستيريا في القرن العشرين وأخذ عدد النساء والرجال اللذين أظهروا أعراضاً هستيرية بعد عام 1900 بالتضاؤل، ولم تعد الجمعية الأمريكية للطب النفسي تُدون الهستيريا ضمن فئات الاضطرابات النفسية ـ فالأعراض الجسدية التي كان يراها فرويد أعراضاً هستيرية أصبحت تدعى الآن اضطرابات التحوُّل ـ حيث تتحول المشكلات النفسية إلى أعراض جسدية ـ ولا يعتقد أن لها صلة بالرضى الطفولي. إن المرض الذي فجر عند فرويد عملية البحث في العقل لم يعد على الصعيد الرسمي موجوداً. لم يكن علاج الهستيريا أو السلوك العصابي إسهام فرويد الأكبر في العلم، لكنه قَدَّم إلى العالم طريقة جديدة في اكتشاف العقل. ليس فرويد بعالم بالمعنى الحديث للعلم، لكنه جعل الأمر ممكناً لآلاف الباحثين والمعالجين والفنانين والكتّاب لكي يكتشفوا الدوافع اللاشعورية وراء السلوك، والمشاعر التي لا نعترف بها والبنية التحتية المظلمة لواجهة التفكير العقلاني.



6 أيار 1856

ولد سيغسموند شلومو فرويد في فريبرغ، موراڤيا.

1860

انتقلت عائلة فرويد إلى ڤيينا.

1873

يدخل فرويد جامعة ڤيينا.

1881

يحصل فرويد على درجة الدكتور في الطب، ويعمل بتفرغ كامل في مختبر إرنست بروك.

1882

يبدأ فرويد العمل في مشفى ڤيينا العام ويعقد خطوبته على مارثا بيرنيز.

1884

ينشر فرويد «عن الكوكا».

1885

يسافر إلى عيادة تشاركو في باريس.

1886

يحاضر عن الهستيريا في جمعية أطباء ڤيينا ويقيم عيادته الخاصة.

1887

ولدت ماتيلدا فرويد، ويتقابل فرويد مع ويلهالم فلييس.

1889

ولد مارتن فرويد.

1891

ولد أوليڤر فرويد.

1892

ولد إرنست فرويد.

1895

يشاهد فرويد «حلم حقنة إرما»؛ ينشر دراسات عن الهستيريا.

1896

ولدت أنّا فرويد؛ يموت والد فرويد، يحاضر فرويد عن نظرية الإغواء في ڤيينا.

1897

يباشر فرويد بالتحليل النفسي الذاتي، يرفض نظرية الإغواء.

1902

يتوقف فرويد عن المراسلة مع فلييس؛ تبدأ جمعية الأربعاء النفسية.

1904

يبدأ فرويد بمراسلة كارل يونغ.

1905

ينشر «ثلاث مقالات عن النظرية الجنسية».

1909

يزور الولايات المتحدة.

1914

يكتب «عن النرجسية»؛ تبدأ الحرب العالمية الأولى.

1918

يحضر ممثلون عن ثلاث حكومات مؤتمر التحليل النفسي الأولى بعد الحرب.

1920

وفاة سوني فرويد.

1922

تنضم أنّا فرويد إلى جمعية ڤيينا للتحليل النفسي.

1923

يتم تشخيص مرض السرطان في فك فرويد.

1926

ينشر «مسألة التحليل العادي».

1929

يكتب «الحضارة ومنغصاتها».

1933

يحرق النازيون كتب فرويد في ألمانيا.

1938

يهرب فرويد من ڤيينا؛ ينشر «موسى والتوحيد».

23 أيلول، 1939

وفاة فرويد في إنكلترا.

«في هذه السيرة الجديدة بتأليفها المتسق والمتقن تروي ماكنهوبت على نحو في غاية الإثارة قصة حياة وعمل فرويد. ينبغي أن يكون هذا الجهد الجميل محط اهتمام ليس فقط الشباب والقارئ العام، بل (السبب في كونه خلاصة محكمة) لطلاب الدراسات العليا أيضاً وللمتخصصين في مجال الصحة النفسية والعلوم السلوكية»

الأفلام والكتب العلمية

«سيجد القارئ في المستوى الجامعي أن كتاب (سيجموند فرويد) قيم ... وأن كتابة (ماكنهوبت) واضحة، وأنها تصدر لعدد من نقاط القوة والعنف عند فرويد»

مجلة المكتبة

«تقدير متوازن لحياة وعمل وأوقات فرويد... تعريف جيد بشخصية لا تزال مثيرة للجدل».

مراجعات كيركوس

بالتعاون مع جامعة إكسفورد تقدم مكتبة العبيكان لقرائها الكرام سلسلة علماء عباقرة وتضعها في متناو ل أيديهم.

تجمع هذه السلسلة المصورة بين المعلومات الفنية المتخصصة وبين القصص الشخصية الجذابة لتصوير العلماء الذين كان لأعمالهم العلمية الأثر البالغ في صياغة فهمنا للعالم.

لايزال تيار الجدل حول إنجازات سيغموند فرويد العلمية الذي عاش بين عامي (١٨٥٦- ١٩٣٩). لقد كان لإسهاماته في علم النفس والفلسفة الأثر البالغ في توجيه مسار المناظرات حول العقل البشري لأكثر من قرن.

يقدم هذا الكتاب قصة حياة فرويد المدهشة مردفاً ذلك بطرائقه وأهدافه وإنشائه لنظرياته ابتداءً من دراساته عن البنى العصبية وانتهاءً بأعماله كفيلسوف الحضارة الإنسانية.

تقدم هذه السلسلة السريعة لحياة فرويد منذ طفولته في مدينة فيينا إلى عامه الأخير في مدينة لندن، حيث تم الترحيب به على أنه يمثل ثورة علمية حقيقية، تقدم نظرات عن قرب إلى حياة وعقل رجل غيَّرت أفكاره المتطرفة العالم من حولنا إلى الأبد.

تضمنت الإضاءات على حياته عمله مع الأشخاص الهستيريين، واكتشافه لما قبل الشعور، وتأسيسه، للتحليل النفسي ونظرياته في الجنس البشرية.

ردمك: ٨ - ٤١٨ - ٤٠ - ٩٩٦٠



6000862

موضوع الكتاب: الاختراعات / المخترعون

موقعنا على الانترنت:

http:/www.obeikanbookshop.com